رواية

رحيل الطيور



أحمد كايد





رحيل الطيور



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2013

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2012/4/1490)

813.9

حسين، احمد خليل كايد

رحيل الطيور/ أحمد خليل كايد حسين / عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2012

( ) ص

ر.إ: (2012/4/1490).

الواصفات:/ القصص العربية // العصر الحديث

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-555-14-3

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة

عن رأي الجهة الداعمة له



تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
تلفاكس: 5353402 6 962+
ص.ب: 520946 عمان 11152 الأردن

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
خلوي: 95667143 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com

رحيل الطيور

رواية

احمد كايد

الطبعة الأولى

2013م– 1434 هـ

مقدمة

الحب مثل الوردة السحرية، تهبط علينا فجأة، مخضّلة بقطرات الندى، فترشف عطرها الأرواح الظامئة، فتسكر يوماً، ثم تصحو عاماً، ثم تموت دهراً.

أحمد



رحيل الطيور

رحيل الطيور

ربما تكون المصائب في بعض الأحيان، سبباً في نجاح الإنسان، خصوصاً عندما يأخذ الموت أحد الوالدين، والأبناء مازالوا صغاراً.

أذكر تلك اللحظة، التي أتلف فيه اصراخ النسوة نصف أعصابي، وظل هذا الصراخ، يتردد في وجداني، كلما سمعت صياح ديك، او عويل كلب مكروب، يأتي من الأزقة، او باحات البيوت.

لقد مات أبي مقتولاً، وكنت حينها صبياً، لا يستوعب عقلي الصغير أبدية الموت، وآخر مشهد رأيته فيه حياً، عندما كان يرقص في الزّفة، أمام العريس، في شارع منحدر، يقود نحو الساحة في وسط البلد، والنسوة يغنينويلوّحن وراءهم بالشاشات والمناديل، والصبية يدخلون ويخرجون وسط الزحمة بين الناس.

عنـدما احتـدم الجنـون، وتـصبّب العـرق مـن جبـاه الشبان، هزّ الحماس واحداً منهم، وحمـل أبـي علـى كتفيـه، وعلت الزغاريد من أفواه النسوة، وانطلقت حفنـة جفـتمن فوّهة خرطوشٍ عمياء، أصابت أبي في مقتل، فـارتخى علـى الأكتاف مثـل صـقر جـريح، هـوى مـن مرتفـع، وتحولـت البهجة إلى مأتم، وصاحت النسوة، وفـرّ الـصبية مـذعورين، وتفجرت النخوة في صدور الشبابدون تـدبير، يعيـد الـروح إلى أبي المقتول.

حملوه بسرعة الى الـدار، ووسّـدوه علـى حـشيّة فـوق الحصير، وحين وقفت بجانبـه، رأيتـه مـسربلاً بالـدم، حتـى اختفـت ملامـح وجهـه المألوفـة، فـصدرت عـني صـرخة عـدميّة، لم أعرف لها قرار، هل كانت حزنـاً علـى الأب، أم خشية من منظر الدم المخيف؟ أمسكت بـذراعي امـرأة مـن أهل الجوار، وقـادتني كارهـاً إلى بيتهـا، حتـى تبعـدني عـن المكان.

لاذ الجاني بالفرار بين الكروم، حتى يتدبّر العقلاء له دخالة، وبعد منتصف الليل، وصلت قوة من سواري الفرسان، حتى تحتوي الفتنة، وتدخّل الكبار من أهل البلد، وسمعت شيخاً يقول:-

كلّنا أهل، والجرح في الكف، وهذا قضاء الله.

وأخذوا عطوة على مضض، بعد ترويض العواطف الثائرة.

قدّمت المرأة ليطعاماً، لم أذق منه شيئاً، وبعد أن هدّني النعاس، نمت بين صبيتها، وهاجمتني كوابيس الليل بأشكالٍ مروّعة، وصحوت عدة مرات على نمل ينغل في شراييني، وكلما نظرت نحو الجدار، تمثّلت لي بين النور والعتمة، أشباحٌ مخيفة، لها أنوف معقوفة، وشعر مهوش، يشبه وبر الغيلان. فأعود وأغمر رأسي تحت الغطاء، لعل النوم يأخذني من جديد.

قبل الضحى، صحوت من نومي مـذعوراً، فوجـدت نفسي في الفـراش وحيـداً، وتـسللت منـه، وعـدت تـوّاً إلى الـدار، فرأيـت أبـي مـسجى بـين النادبـات، ورأس أمـي معصوباً بخرقة سوداء، لها عقدة من الخلف، وجدتي شعرها منفوش، تلطم الخدين، وهي جاثمة على ثوبها المقدود.

رحت أحاول أن أتجاوز محنتي المـسمومة، بـأن أشـغل نفسي، في شـيء يلـهيني، ووجـدت خـير وسـيلة، مناوشـة الصبية، وهم يمدّون أعناقـه منحـو الجثـة في فـضاء البـاب، وأذكر أنها لم تسقط مـن عـيني دمعـة، لأن الـدموع جميعهـا، نضبت مع بكاء الليلة الماضية، أو ظنّاً مني، أن أبي سـينهض فجأة، ما دامت النسوة، يشفعن له عند الله بالنواح. ولم يقدّر عقلي الـصغير، أن أبـي سـيغيب عنّـا إلى الأبـد، وتتلاشـى صورته من الأذهان.

قبل الظهر، جاءت امرأة، في عينيها نصر، تشير بيـدها وهي تقول:-

- سلّم الجاني نفسه.

أسرعت تواً نحو المضافة، لأشاهد ما يدور، رأيته مخفوراً عند الباب، نادماً متهالكاً، مطأطئ الراس، وجهه خالٍ من الدم، مثل ملعقة قديمة، سلّت من تحت التراب.

بقيت واقفاً، مأخوذاً ببريق الشارات والنياشين اللامعة، على صدور العسكر وأكتافهم، ورحت أتأمل بندقية أحدهم عن قريب، أتصور أنفيها شيئاً مخيفاً، يخرق الصدر والجبين، ويسيّل الدماء، كما صوّر لي عقلي الصغير، أن خيول العسكر البدينة، يمكنها أن تحب سبغال القرية وحميرها، بإشارة من مسؤول.

عند المساء، دخل العريس على العروس، ناشف الرّيق مسموم البدن، وشاعت أقاويل بين الناس، أنه قضى أسبوعاً عاجزاً ، دون أن يفلحها، كاد فشله في النهاية، أن يقود الى طلاق.

كنت مأخوذاً في أيام العزاء الثلاثة، بتوافد الناس على الدار، وكان حديث الرجال، يتراوح بين أحكام الدين، ومواسم الغلال، وأهوال الحرب العالمية الأولى، وتحويل الحديث من موضوع إلى آخر، لا يحتاج إلى أكثر من سؤال، يطلقه فضولي، يجلس في الزاوية، أو على نهاية الفراش، عند الأحذية قرب الباب.

جلب خال عطا الله، شقيق جدتي من أمها، شاة معه من قريته البعيدة، على عادة أهل الريف، وقام جدي بنحرها يوم الختمة، ووجدت لي دوراً عظيماً، عندما طأطأ المدعوون رؤوسهم أمامي، يغسلون أياديهم من الزفر، تحت مصب الإبريق بين يديّ

كانت جدتي من قرية أخرى، تنحدر من أسرة لها شأن، تمتاز نسوتها بالبياض وزرقة العيون، وكنت أرافقها وأنا صغير، حين تذهب لمساعدة أهلها، في الأفراح ومواسم القطاف، وكنت ألعب مع صبية من جيلي، نتسلق الأشجار

في محيط الدار، ونتبارز بأعواد القصب، ننظر أيام الخريف، إلى أسراب الطيور المهاجرة، (حوّام الخميس)، تتقاطر في السماء، على شكل خطوطٍ متعرجة، تنفرج في النهاية، حتى تصبح مثل خليجٍ مفتوح على أرخبيل، تتبع طائراً حكيماً، ينعق كل حين، كأنه يحثها على النظام، ثم لا يلبث السرب ، حتى يدور في دوامة سريعة، مثل زوبعة، تحمل معها، أوراق الخريف.

وفي مرة، حلفت جدتي بجديلتها، أنها لن تصحبني معها، بعد أن سقط صبي عن شجرة، كسرت ذراعه، وتنصّل الأولاد من ذنوبهم.

لم تمض أيام على موت أبي، حتى شعرت أمي بفداحة المصيبة، وكلما نظرت إلى وجهها، رأيت في عينيها حزناً عميقاً، وغدت كثيرة الحركة، مثل فراشة جناحها مكسور، تخرج إلى الفناء، ثم تعود دامعة العينين، دون أن تنجز شيئاً.

بالرغم من أنها كانت في سن الثلاثين، لم تتجاوز الحد الأعلى من عمر الصبايا المرشحات للزواج، إلا أن الحزن هدّها، وجعلها امرأة في جيل الجدّات، وظلت جدتي لا تكف عن النواح خلسة، ووجنتاها تلمعان بالدمع، وكلما رآها جدي على هذا الحال، ينهرها بصرامة، وعجبت لقدرة الخالق، الذي ميّز الرجال عن النسوة، بأن وضع في قلوبهم صبراً، أضعافاً مضاعفة، عما في قلوب الأمهات.

توشحت أُمي بالسواد، وغدا شداد وسطها مقلوباً، وأضربت عن الاغتسال طيلة أربعين يوماً، فبدأت تنبعث من جسدها ورأسها رائحة عطنة، فحملت فراشي إلى حجرة الجد، وبقيت بجانبه، إلى أن صحوت عليه مرة، بعد منتصف الليل، يبكي مثل جمل مكسور،وبكاء الرجال مخيف، يوقف القطر في السماء، فانسربت في أعصابي سموم، تضخّمت لها أوردة الخدين والعنق، حتى شعرت أنني أموت، وأدركت لأول مرة، أن الرجال أبلغ حزناً من

النساء عندما تحل المصائب، لكنّ الله أقفل على قلوبهم، صدوراً من حديد، يتحكمون بها عند الأزمات.

حدث هذا، عام 1934، عندما كان عمري عشر سنوات، لتضيف هذه الفاجعة، إلى ذهني الصغير، صوراً أخرى لأحداث مروعة، وقعت في الماضي، عندما كنت في الرابعة من عمري، لم أدرك لها تفسيراً، إلا بعد سنوات، وظلّت تلازمني في سن الصّبا، مثل حلم مزعج، يعاودني ضمن شريط من أحداث، يدور في رأسي كلما وضعته على الوسادة.

كان المشهد غير واضح المعالم، يضم نسوة يحملن أطفالا مفزوعين، ورجالاً تتجاوب أصواتهم بين البيوت، وأنا متكوّر في حضن جدتي في العراء، والأرض تميد بأحمالها.

ظل الأمر غامض التفاصيل، إلى أن بدأ عقلي يقبل التفسير، وراحت جدتي، تحدثني عن (سنة الهزّة)، التي

ضربت بلاد الشام، عام 1927 ، وردمت بيوتاً على أصحابها، قتلت فيها الحجة حمدة من أهل البلد، وأتت على كثير من المواشي، تحت أنقاض الأروقة والبيوت القديمة، وسرت شائعات حينها، أن ثلثي بيوت مدينة نابلس، التي تتقنطر فوق بعضها، على سفوح عيبال وجرزيم، قد سوّيت بالأرض، وأودت بحياة خلق كثيرين.

بعد أن وضح المشهد، تشكلت في ذهني تفاصيل جديدة عن تلك الأحداث، مثل صورة في العتمة، تم تسليط ضوءٍ ضعيفٍ عليها، ومع مرور الأيام، تلاشت آلامها من النفوس، وسارت أحداثها في موكب النسيان، لم يبق من ذكراها، سوى التقويم في أذهان الناس.

لكنّ فاجعتنا على غياب الأب كانت كبيرة، فاقت جميع الزلازل، التي تنفطر لها الأرض، وأدركت حجم المصيبة، التي خلّفها موته في نفوس الأهل، ورحت ألمس كل طالع شمس، دلائل حزن جديدة، أعمق مما كنت

أتصوّر،ووجدت خير وسيلة للهروب من غمّة البيت، الهيام على الوجه، في الطرقات ومشارف الحقول، أهدر الساعات في قتل السحالي والحراذين، أصوّب الحصى نحو الدجاج والقطط، حتى أفرغ من نفسي، شحنات الضيم والضيق، متذرّعاً بحصانة اليتيم في عقول الناس، وأظل هكذا، حتى تقودني الطريق إلى أطراف البيوت، قبالة حلقة الكتاتيب، أختار مكاناً مستوراً، يسهل منه الفرار، أجلس على حجر، يمكن منه التواصل مع التلاميذ بالإشارات من بعيد، حتى لا يراني الشيخ، لئلا يطردني من المحيط.

كان التعليم في القرية، يعقد في الصيف، تحت شجرة خروب كبيرة، في الهواء الطلق، وفي أيام الشتاء، في خرابة مهجورة، لها سقف، يقي الرؤوس المملوطة من رشق المطر، ومن شدة الفقر وقلة الحيلة على شراء الدفاتر والأقلام، كان التلاميذ يغمسون يراعة من قصب، في محلولِ منسناج السراج الأسود، يكتبون الحروف والكلمات، على صفائح من تنك.

كنت أحوم أحياناً حول الكتاتيب بخيفة وحـذر، أنظـر إليهـم من بعيد، بوحشة المنبوذ، ونظرات الشيخ تحاص رنـي أينما أدور، كأنه ينهرني للابتعاد عن المكان، حتى لا أشـتت عقول الصبيان، فكنت أشعر كـأنني شـاة جربـاء، مـن غـير القطيع، وكلما أرسل الشيخ نظـرة نحـوي عـن غـير قـصد، أتصوّرها إنذاراً أخيراً، ألوذ بعينيّ في كل الجهات، حتى أبدد الحرج عن نفسي.

كان الشيخ رقيق العود ممصوص الشدقين، يختلط شعر وجهه مع شعر الرأس، يعتمر عمامة مرخيّة، عديمـة اللـون، كلما ردد جملة على أسماع التلاميـذ، يـصرُّ عينيـه، ويـشوح وجهه نحو السماء، وإن لم يعجبه الحال، يهـزُّ أمـامهم عـصاً من قصب، ينذرهم بالويل وسوء المصير، وعندما يقف أمام التلاميذ، يبدو مثل فزّاعة من حطب، عليها ثوبٌ قديم.

عندما كان الضجر يغلب عليّ، أهيم على وجهـي في الحقول، ألتقط حبات اللوز الجافة، وفضلات الثمار المنـسية

في البساتين، وفي طريق العودة، أتلكأ بالجلوس على أعتاب البيوت، أرقب العصافير، تتطاير في فضاء الأزقة بين الجدران، حتى أظل بعيداً عن كآبة الدار.

كان أكثر ما يشدّني من مشاهد في الطريق، صراع القطط ومبارزة الديكة، وكنت أتصوّر نفسي، حكماً بين الخصمين، ثم لا ألبث، حتى أتواطأ مع المغلوب، ألقي ُحجرًا أو عوداً من حطب نحو الغالب، حتى، أنتصر للذليل المكسور.

كنت أشعر في أعماقي، أنني لست شريراً، لكن اليتم وقساوة الأيام، جعلت حدأة الشر تتعارك مع حمامة السلام في نفسي، بدلالة انتصاري للذليل المهزوم، وندمي في كل مرة، على قتل المخلوقات الصغيرة، وهي تتجندل أمام عيني، في النزع الأخير، وودت في كل مرة، لو تعود لها حياتها من جديد، أو لو أن الله، أعمى بصري عن

مصادفتها، حتى تظل تنعم بحياتها، التي وهبها الله لها عن حكمة، لم ندرك نحن البشر، تفسيراً لها حتى الآن.

مع بداية فصل الخريف من نفس العام، خطر جدّي إلى رام الله، مع شروق الشمس، لتسوية أوراق رسمية طال تأجيلها، التقى صدفة في ميدان السوق، مع ابن صديق قديم، يعمل معلماً في دار الأيتام الإسلامية، في القدس، اسمه يعقوب، كان والده، رفيق الجد في حرب البلقان.

بعد أن جابر المعلم الجد بفجيعته على ابنه، سأله، إذا كان المرحوم قد ترك خلفه صغاراً، فأثار السؤال، ذكرى أليمة، كانت خامدة في قلب الجد، فلم يتمالك نفسه، وتفصّد الدمع من عينيه، وقال بصوت تقطعه الغصّات:-

-ولدٌ وحيدٌ، لم يدخل الكتاتيب بعد.

أطرق المعلم قليلاً، كأنه يفكر في تدبير احتماله ضعيف، ثم رفع رأسه، وأشار على جدي، أن يجرّب حظي في المدرسة التي يعمل فيها، فعزّت عليه نفسه، وتردد في

الجواب، وعندما لمس المعلم في قلبه حيرة، زاد في التشجيع، قائلاً:-

- إنها فرصة نادرة لن تتكرر، والمدرسة عظيمة، لا يدخلها سوى أبناء الشهداء، وسأظل راعياً له، ما دمت فيها، وإن لم يعجبكم الحال، نعيده إليكم بسهولة.

عند العصر، عاد جدي من رام الله مهموماً، يحمل بين يديه كيساً من ورق، فيه كعكب اناً وهريسة وخبز السوق، وحين وطأت قدماه عتبة الدار، ناداني على عجل، ولما رآني في حال لا يسرّ البال، نهرني أن أغسل وجهي وأطرافي، وأبدل ثوبي الملطخ بالأوساخ.

حين عدت إليه، وجدته مشتبكاً مع جدتي في حديث ذو شأن، ولم يلبث، حتى استدعى أمي من غفلتها، وطرح عليها عرض المعلم يعقوب، فنزل الخبر عليها، نزول الصاعقة على الرأس، وقالت:-

-إنني الحيلة الوحيدة، التي تركها المرحومُ لها بعد مماته، وتخشى عليّان أضيع في فوضى المدينة، وأتركها قطيعة بين الناس.

جرى كل هذا، وأنا أنظر إلى ما يدور دون اهتمام، مثل خروفٍ اشتراه رجل عشية يوم العيد، لا يهمه في اللحظة التي يعيشها، سوى حفنة من شعير.

بعد أخذ ورد، طال يومين، وافقت أُمي مكرهة على رغبة الجد، وبدأت تجمع حاجاتي في كيسٍ من كتّان، وكانت تبدو صامتة ساهمة طيلة الوقت، وزادت الجدة في دعائها بعد كل صلاة.

في الليلة الأخيرة، وضعت رأسي على الوسادة، وأغمضت عيني، وسرحت بفكري في خيال فسيح، وتصوّرت القدس قبل أن أراها، ساحة فسيحة، مرصوفة بالرخام، تظللها قبة هائلة من نحاس، يحرسها علوج من مسلمين، عيونهم زرقاء، في لون السماء، يلبسون دروعاً

قوية، ويعتمرون خوذاً من حديـد، تعلوهـا شـبارق حمـراء، تشبه عرف الديك.

مع انبلاج الفجر، صحوت على جدي يصلي جهـراً، فسرت في أعصابي رهبة السفر، وتقلبت في فراشي، وعندما شعر جدي أنني يقظ، نهرني أن أهجر النوم، وأهـيء نفـسي للرحيل.

لوّحت الجدة رغيفاً في الطابون، وأحضرت معه هنابة من لبن، وطلبت مني أن أكسر متّة الريق، لكن الجد نصحني ، أن لا آكل شيئاً، خشية أن يصيبني دوار في الطريق.

كان علينا أن نسير على الأقدام مدة سـاعة، إلى بلـدة قريبة، تمر منها وسائط نقل، وقبـل طلـوع الـشمس، حملـت الصرة على ظهري، وودعتني أمـي وسـط بحـر مـن دمـوع، ودسّت جدتي في يـدي، جنيهـاً فلـسطينياً، وأوصـتني أن لا أفرّط به، إلا فدية للروح.

سرنا في طريق وعر، ينحدر نحو الوادي، تملؤه الحجارة والمنزلقات، تحفّه على الجانبين، أجمات العليق والبلوط وكروم العنب، وكلما فرّ من تلافيف الأغصان طير، أتصوّره وحشاً كاسراً، يتربّص للهجوم علينا، فألتصق بجدي، وعيناي تدوران في كل اتجاه.

حين بلغنا منتصف الطريق، بزغت الشمس من خلف الجبال، شقراء مغسولة، مثل حورية، خرجت توّاً من قاع البحر، وكانت طيور الشقراق الخضراء، تهيم على ارتفاع منخفض، تبحث عن آخر وجبة، من جنادب الأرض، قبل أن تعود الى بلادها، وكلما وقعت عيناي على خصلة عنب، أشير إليها، فيقطفها جدي، فيأكل منها ويطعمني، فكان مذاقها مع الريق، أشهى من شهد الجبال.

حين وصلنا موقف الباص، وجدنا أناساً ينتظرون، في عيونهم صبر، وامرأة هزيلة، تلوث شالاً على عنقها، تجلس قرب قفص فيه دجاج، وفي يدها سلة بيض.

درت في المكان قليلاً، ثم جلست على حجر كبير، قرب حمار مربوط، يهش الذباب بذيله عن ردفيه، وراح ينظر إليّ بعيني نفيهما طاعة واسترحام.

دنوت منه، ودققت في عينيه، فبانت صورتي مقعّرة في الأعماق، وعندما مد بوزه نحوي، وبدأ يتلمّظ، جفلت منه، وجفل منّي، وعدت إلى مكاني، وحمدت الله، الذي خلقني إنسانًا.

كان الجو رطباً، وسحب الخريف البيضاء تهيم في الفضاء، تترك خلفها ذيولاً شاردة، لاتلبث، حتى تذوب في زرقة السماء.

في مجال البصر، لاح رجلٌمن بعيد، يرتدي بدلة بيضاء، تحيط به هالة تحت الشمس، وعندما اقترب منّا، وقف في مكانٍ نظيف، خالي من الحجارة، ولم يلبث، حتى بدأ يروح ويجيء في مسافة قصيرة، يمد بصره مرة نحو الأفق، وتارة أُخرى نحو نعليه، كأنه يستنفذ الوقت في الانتظار.

نسيت الحمار، وخطفت هيئة الرجل الوسيم انتباهي، وبعد تأملٍ عميق، قلت في سرّي:- لا بد أنه راجع من بلادٍ غنية، أو صاحب وظيفة كبيرة في المدينة، ينام في الليل على فراش وثير، ويقتات في النهار، على العسل والحلاوة.

ترك المنظر أثراً بالغاً في نفسي، وقلت في سرّي:- لايرقى المرؤ إلى مرتبة عالية، إلا بصبر وتدبير، فكان هذا المشهد، دلالة نحو القدوة الحسنة في حياتي.

بعد مناوشات مضنية مع الذباب، هلّت حافلة من بعيد، تلوح عبر نوافذها، شاشات النسوة وكوفيات الرجال، وعندما توقفت في منتصف الطريق، رحت أتأملها، فكانت مثل صندوق أحدب،يرتكز على دواليب، لها عينان بارزتان من الأمام، تشبه في هيئتها، شكل العنكبوت، يعلوها قفص من حديد، يعج بأمتعة الفلاحين، تتدلى على جانبي الباص من الأمام، زعنفتان من حديد، يشير بهما السائق، كلما همّ بالانحراف.

جلست بجانب جدي، قرب النافذة، وسلّم علينا رجل يجلس خلفنا، يقاربه في السن، راح الرجل يتحدث على مسامعنا بصوتٍ مرتفع، حتى نميز صوته عن هدير الباص.

أدركت من حديثه للوهلة الأولى، أنه من وجوه الخير، يبذل جهوداً مضنية، للإصلاح بين عائلتين، اختلفتا على زواج، وكان لعابه يتناثر على رقبتي من شدة الحماس.

مد الرجل يده، وأخذ يهدهد على شعري، وسأل الجد:-

- إلى أين أنت ذاهب بهذا الصبي؟

تنهد الجد طويلاً، كأنه مجروح، وقال:-

لعل الحظ يحالفه، ويقبلوه في دار الأيتام.

رفض الرجل الفكرة، وزوى بين عينيه، وقال بنبرة المستعيب:-

- وهل ضاقت به الدار عن لقمة العيش؟

قال الجد: – ربما يتعلم مهنة، تعينه على حياته.

قال الرجل ناصحاً:-

وهل من مهنة أجدى، من فلاحة الأرض وتربية الأغنام؟ ثم ماذا يقول عنك الناس، حين تلقي طفلاً بين أيتام، لكل واحدٍ منهم قصة؟ لا يعلم بها إلا الله؟.

أعرض الجد عن حديث الرجل، وراح يلومه على مشورته الهدامة، وقال وهو من الضجر في نهاية:-

– إنها مدرسة راقية، لا تقبل في ردهاتها، سوى أبناء الشهداء.

انقطع الحديث فجأة، عندما نزل الرجل، عند مدخل قرية، تقع على الطريق قبل المدينة.

حين وصلنا مشارف رام الله، أصابني دوار من هرج الرجل ورائحة البنزين، وأفرغت كل ما في معدتي من عصارة صفراء.

و المخطف لوني، حتى غدا في صفار الليمون، وأسعفني جدي، بمنديل كان في عبّه.

واصل الباص سيره نحو القدس، وأنا ما زلتفي النزع الأخير،

ومن شدة الإعياء، شعرت أن الباص متوقف، والدنيا تجري من حولي، والأشجار والبيوت تغور على الجانبين، في دوامة واسعة، ثم تختفي، وظل الجد ينظر إلى وجهي كل حين، حتى يطمئن على سلامتي، فكانت هذه المرة الأولى، التي أركب فيها حافلة عن وعي، وعيناي تنظران عبر الشبابيك.

حين وصلنا القدس، توقفت الحافلة في ساحة مرصوفة، أمام سور عظيم، كأنه من صنع الجن، نزلنا في مكان مكشوف، تسطع فيه الشمس، وحين عاد لي توازني، رحت أتلفت حولي، فوجدت المدينة تدمدم مثل يوم القيامة، ناس يسيرون في كل اتجاه، وسيارات قليلة، تقف في

الساحات، وعربات خشب، تجرّها حمير، وعساكر الإنجليز، يرتدون بناطيل قصيرة، يتسكعون بين الناس، وباعة الكعك، يقفون وراء فروشٍ من خشب، ولا يخلو البلاط من بصقة هنا، أو حبة فاكهة مهروسة هناك.

سرت خلف الجد، حتى بلغنا درجات،تنحدر نحو بوابة عظيمة، يزيد ارتفاعها على رأس رجلٍ يركب جملاً، تبدو لمن يهمّ عبورها، أنها معتمة، بسبب طول رواقها المنحني المسقوف،سألته عن اسمها، فلم يسمعني بسبب الزحام ، وحين شددت ثوبه من الخلف، تنبه لي، وقال:-

- إنها بوابة دمشق، والناس يسمونها باب العامود.

شاهدت نسوة من قرى القدس، يرتدين ثياباً من حبر، مطرّزة بحرير ملوّن، على شكل عروقٍ وأغصان، يجلسن على الجانبين، خلف مقاطف عنب وخضار، والناس يدخلون ويخرجون من البوابة العظيمة، مثل نمل ينغل في عزّ النهار.

بعد أن عبرنا البوابة لحو الداخل، توقف جـدي علـى بسطة واسعة مكشوفة، تنحدر بدرجات عديدة، لحو أسواق مسقوفة بأقواسٍ من حجر، وقال:-

-إذا قسم الله لك العيش في هذه المدينـة، فـلا بـدّ أن تعرف شيئاً عن مجاهلها، وأشار بيده لحو الـشرق، إلى زقـاق محاذي للسور من الداخل، يقود إلى باب الزاهرة، وقال:-

- هذه حارة السعدية،

ولم يلبـث، حتـى واصـل الانحـدار علـى درجـات واسعة، وأنا خلفه، أحمل الصرة، مـرّة باليـد اليمنـى، وتـارة باليسرى.

كانت معظم الدرجات تشبه البسطات في سعتها، كـل درجة تتسع إلى خطوتين أو ثلاث، من خطوات ولدٍ صغير، وكنت أتبعـه، أتأمـل وجـوه الـصاعدين والنـازلين، فتبـدو لعيني، الفوارق بين وجـوه أهـل الريـف والمدينـة، واضـحة السمات والمعالم، فتلـك وجـوه لوّحتهـا الـشمس، وأخـرى

تنطق بالنعمة، تحت طرابيش حمراء، تزيد الوجوه زهاءً على زهاء.

كنت ألبس ثوباً داكناً على اللحم، يزيد لونه المعتم، من بياض الوجه والذراعين، وكدت أسقط على الأرض، بعد أن زلّت قدمي اليمنى على درجة ملساء، وأنا أنظر إلى شبحي المتكسّر، على مرايا الحلاقين، وواجهات المحلات، فسقطت الصرة من يدي، وظلت تتدحرج، حتى استقرت عند أقدام بسطة للمعمول.

عند نهاية الانحدار، وجدنا نفسينا بين الزحام، أمام تشعّب لسوقين معقودين بالحجارة، تعلوهما بيوت مأهولة، يفوح من نوافذها عبق التاريخ، واحد جهة اليمين، يدعى خان الزيت، يقود في نهايته، إلى جامع عمر وكنيسة القيامة، ونظيره نحو اليسار، اسمه شارع الواد، يؤدي إلى بوابات ساحة المسجد الأقصى الغربية، يصل بينهما في الوسط، طريق الآلام، الذي سار فيه السيد المسيح، وهو يخور

بالتعب، تحت عبء الصليب، قبل أن تصعد روحه نحو السماء،كانت دار الأيتام، قريبة من ساحة المسجد الأقصى، وكان علينا، أن نسلك إليها أقصر طريق من شارع الواد، إلاّ أن جدي، اختار السير في خان الزيت، كأنه يريد أن يفرّجني على دكاكينه الزاخرة.

حين عبرنا الشارع المسقوف، فغمت خياشيمي رائحة التاريخ، ممزوجة بعبق السيرج والبهارات، التي تنبعث من الدكاكين المتقابلة على الجانبين، وأكثر ما كنت أخشاه بين الزحام، الشيّالين، الذين يحملون على ظهورهم سلالاً كبيرة، مليئة بالخراف المسلوخة وأفخاذ العجول، خوفاً من أن تتلطّخ ثيابي بالدّم، خصوصاً أنني ذاهب إلى مقابلة فيها تقرير مصير، فإن وافقوا على قبولي في الدار، عاد جدّي وحيداً، وإن لم يفعلوا، عدنا الثلاثة، أنا وجدّي والصرّة.

كان سقف السوق، ينفرج كل مسافة قصيرة عن أشعة الشمس، حتى يطول النور أعماق الدكاكين، والمحلات

تعرض على رفوفها، سكاكر ومكسّرات وعطارة، لم أُشاهد مثلها في حياتي، فرثيت حال الفلاح، الذي يكدُّ في الأرض من أجل المعيشة، وحسدت أهل القدس، على الرغد في الظل، بين الحلوى والمكسّرات، وتمنيت في سرّي، لو تدور الأيام، وأصبح واحداً من أهلها.

في غفلة مني، انعطف الجد نحو اليسار، وتوقف قليلاً، كأنه يريد أن يسدي إليّ نصيحة، وحين نظرت في وجهه، أشار بكفّه في فضاء الزقاق، وقال:-

-هذا هو طريق الآلام، علينا أن نعبره، حتى نختصر الطريق إلى المدرسة، التي جئنا من أجلها، وعليك أن تقف أمام المدير بفطنة ونباهة، حتى لا نعود إلى القرية خائبين.

كنت أتبعه على مهل، أنظر في وجوه بنات القدس، بفساتينهن الزاهية القصيرة، وأذرعهن البضّة البيضاء، وشعرهن النظيف، وخطرت على بالي نساء القرية، بسراويلهن السوداء، وثيابهن الوافية، وباطن أكفّهنّ في

خشونة الليف، حتى قطط المدينة، تطفح عيونهن بالنعمة، ولا أحدٌ يقذفهن بالحجارة، مثل قطط الريف.

كان الجد يتباطؤ في المسير، يتلفت خلفه كل حين، حتى يتأكد أنني موجود، توقّف أمام مطعم صغير، تفوح منه رائحة فلافل، تؤجج الجوع في نفس الصائم الملهوف، نظر في وجهي، كأنه يستشيرني، وحين استشعر في عيني لهفة، ابتاع رغيفاً من خبز السوق، فيه أقراص شهيّة، ما زالت فقاقيع الزيت تغلي في مساماتها. رحت أقضمها دون وعي أمام نظرات الناس في الشارع، فكانت أول وجبة، أنعم بها في المدينة، لم تجُد عليّ بمثلها خيرات الريف.

كان يتوقف عند كل تفرّع من الشارع، يسأل الناس عن دخلة السرايا القديمة، وحين عرف وصفها، انحرف نحو اليمين، في زقاقٍ مرصوف بالرخام، صقلت مماشيه حتّ الأقدام،

وجدنا بواباً يجلس في كشكٍ عند المدخل، ينظر إلى لا شيء، كأنه مهموم، وعندما تنبه لنا نحوم حول الزجاج؛ وقف في فضاء الباب، وأشار الى ممر مسقوف، يقود إلى جناح المدير.

عند الباب، تريث جدي في الدخول قليلاً، كأنه يستوحي نجدة من من عند الله، وسأل أحد المستخدمين عن المعلم يعقوب، ولم يمض وقت، حتى أقبل علينا المعلم يعقوب مرحباً، سار مع جدي بضع خطوات، وهو يحدثه بطريقة تشبه الهمس، كأنه يوصيه، بما يجب أن يقول.

دخلا على المدير، وأنا بقيت عند الباب، طرحت الصرة بين قدمي على البلاط، وتقدم يعقوب نحو المكتب، وأشار إليّ بكفٍ نصف مفتوحة، وقال:-

- هذا هو اليتيم الذي قلت لك عنه، فوقعت كلمة يتيم على نفسي مثل الشتيمة، وتضاءل حجمي، وشعرت

بالدون، ورفعت يدي على فمي، ورحت أقضم ظفر الإبهام، وأعصر الصرة بين قدميَّ، حتى كادت تستغيث.

نظر المدير إليّ بعينين فاحصتين، من خلف نظارة سميكة، تشبه قعر الزجاجة، فشعرت كأنني يربوع حقير في حضرة الغول، ثم أطرق يفكر، مما أفسح لي وقتاً لالتقاط الأنفاس، فكان الرجل هادئاً وقوراً، كأنّ أمه حمّلته عبء الدنيا، عندما ولدته من بطنها، أو كأنه لم يمرّ في طفولته على شقاوة الصبيان.

رفع المدير رأسه، وقال:-

-قامت هذه الدار في البداية، لأبناء الشهداء، الذين ضحوا بحياتهم من أجل الوطن، ولا مجال لغيرهم فيها.

تنحنح الجد، وقال بحجة ضعيفة:-

- لكنها دار الأيتام.

قال المدير بلسان المحكوم بسقف الوظيفة:-

- لاعجب في إصرار المندوب السامي البريطاني، على تسمية الدار بدار الأيتام، حتى يظلّ إسم الشهيد والقتيل، في أذهان الناس في مرتبة واحدة.

ضحك المعلم يعقوب، حتى يضفي على الجو طراوة، وأشار بيده لحوي، وقال:-

- حارب جده في البلقان مع أبي، ولو كتب الله له الشهادة في تلك البلاد، لأصبح الولد حفيد الشهيد.

ضحك المدير ضحكة عالية، تعثّرت في السعال، وقال وهو يضبط أنفاسه:-

المنطق المقلوب عند الحاجة، يكون له أحياناً مفعول السحر، وقد يقنع الناس مثل المنطق السليم.

بعد أن وضع المعلم يعقوب إرادته بالجد والهزل في كفّتنا، أشار المدير لحوي، وقال:-

- خذوه تحت التجريب.

بعد أن وافق المدير على قبولي في الدار، ودّعني جدي بكفٍ خشنة، وطبع على خدي قبلة من شفتين جافتين، وأوصاني أن أكون مطيعاً.

قادني المشرف، إلى عنبرٍ، فيه أسرّة متناظرة على الجانبين، وظل يسير أمامي، حتى حطّ يده على واحدٍ منها، قرب نافذة واسعة،تطلُّ على بيوت المقدسيين، في الطرف الثاني لشارع الواد، وأشار بيده، وقال:-

- هذا سريرك، اجلس عليه، حتى أتمم ما لدي من أعمال.

كانت الغرفة خالية، والتلاميذ في صفوفهم، وكنت أسمع كل حين، أصوات المستخدمين في الممرات، ينادون على بعضهم،

وقفت في فضاء النافذة، ورحت أنظر لحو المدينة، فرأيت أبنية قديمة، داخل السور وخارجه، بعضها مسقوف

بالقرميد، وأخرى على شكل قباب وأهرامات، تعلوها أهلّة وصلبان.

بعد وقت قصير، تنبهت إلى رجلٍ يقف في فضاء الباب، سألني توّاً:-

- هل أنت الطالب الجديد؟

-أومأت بالإيجاب، فأشار لي أن أتبعه.

قادني إلى مستودع فيه ملابس، وبعد أن فتح الباب، ألقى نظرة على طولي، وراح يتمتم بالأرقام، وهو ينظر إلى الرزم فوق الرفوف، يطلق صفيراً من بين شفتيه، كأنه يتروّى، حتى يهتدي إلى المطلوب.

لم يلبث، حتى سحب الرجل سروالاً وسترة وطاقية من قماش أزرق، وطلب منّي أن أقيسها، لبست السروال أولاً، لعدم وجود ملابس داخلية على اللحم، وبعد أن أصبحت عورتي مستورة، خلعت الثوب، ولبست السترة، وأظهرت بهجتي بالزيّ الجديد.

في اليوم التالي، لبست البدلة فوق ثياب داخلية، فبانتك أنها صارت صغيرة، ورضيت عن خنوع بالنصيب، وهي ضريبة، يدفعها عادة ابن الريف، حين تبهره أشياء المدينة، عند النظرة الأولى، وبعد أن أدرك المشرف ما أعانيه من ضيق، أمر أمين العهدة، أنيبدّلها في الحال.

كانت الدار كثيرة الغرف والقاعات، يتوه فيها الزائر الغريب، فيها مدرسة للصفوف الستة الأولى، يتبعها مهن تعليمية، للنجارة والدهان، والخيزران والتجليد والطباعة، والأحذية والخياطة، يتوزع عليها التلاميذ بعد التخرّج من الصفوف المذكورة، وكانت الدار، تتولّى طباعة، جريدة الدفاع المشهورة، قبل أن تتحول إلى مطابعها الجديدة في يافا.

في اليوم الأول، رحت أُدقق في عيون التلاميذ، علّني أجد رفيقاً يوائمني، يعوضني عن أُنس الأهل في البيت، والنظرة الأولى في وجوه الناس، لها الحظ الأوفر في الرفض أو القبول، وخطفت خفّة دم صبي من جيلي اسمه فارس،

جانب الود والراحة في نفسي، وكان سريره يعجّ بأوراق الرسم والتلاوين، وكان يطلق كل حين، طرفة، تجبر الطالب المهموم على الانفراج.

تقرّبت منه، حتى صار يأنسني، وراح يؤآزرني وينصرني، على ولدٍ عدواني اسمه محارب، يجرب شروره على كل طالب جديد، وظل هكذا، حتى شكوته عند المسؤولين، بشهادة فارس عطا، فأوسعه المشرف ضرباً بعصا الخيزران، حتى كفّ شره عنّي.

كان مدير الدار، جميل وهبة، رجلاً وقوراً، تنبعث من مثواه المجهول، المسؤولية والروح الوطنية، ومديرة البنات، رفقة الدجاني، حازمة شديدة الحدّة، لا يُردُّ لها أمر، مثل مأمورة السجن الصارمة.

بعد أن انقضت أسابيع على وجودي في الدار،تعرفت على الوجوه وسرائر النزلاء من أندادي، وكان بعضهم من أبناء الفلاحين، الذين لا ينعشونهم أهلهم بالمال، وكنت

أرثي لنظراتهم المحرومة في يوم العطلة، حين نشتري من الدكاكين، وكنت أقرض من يعاشر نيمنهم قرشاً من مصروفي، وقلما أستعيد القرض، وعندما أشرف الجنيه على النفاذ، شكوت همّي إلى فارس عطا الزير، فضحك مني، وقال:-

- بعضهم لا يستطيعون الوفاء لقلة الحيلة.

فقلت له:-

- إنهم مساكين.

فقاطعني يقول:-

- ليس من الممكن يا صديقي، أن تمحو وحدك هموم جميع الناس.

منذ ذلك الحين، أصبحت حريصاً على حاجاتي، ولا أنسى، يوم انزوى بي أحدهم مساء الخميس، وطلب مني أن

أقرضه قرشاً، فجفّ ريقي، ولم أستطع أن أردّ عليه، وكدت أقول له:-

- إنهم حذّروني من الدين، لأنك لاتفي بالسداد.

لكنّ لساني سبقني، فقال غير ما كنت أشاء، قلت له:- غداً صباحاً....، وكان غداً الجمعة، ولم أقدّم له شيئاً، وسألني بعينيه، وفيهما ملامة واتساع، فأشحت عنه بوجهي، فلم يعاودني بعد ذلك السؤال.

بعد أن مضى ستون يوماً على وجودي في القدس، زارني جدي أول مرة، كان يحمل في يده كيساً صغيراً، فيه زلابية، وتيناً مجففاً وزبيباً، وعندما وقعت عيناه عليّ بالبدلة الجدلاوية الزرقاء، بشّت أساريره، وبرقت عيناه بالدموع، ضمني إلى صدره، وراح يمسّد على ظهري، كأنه يفرغ شحنات الحنين في جسمي، حتى يستوي الشوق بيني وبينه، وسقطت الطاقية عن رأسي فوق نعليه، فتناولها، وراح يجفف دموعه عن خديه.

أعطاني الصرة، ومد يده إلى جيبه، وأخرج جنيهاً فلسطينياً، وأوصاني، أن أودعه عند البوّاب، حتى لا يسطو عليه التلاميذ، ووعدني، أن يرجع لي في عطلة الربيع، ويعيدني معه إلى الدار، حتى تسعد الأم والجدّة، برؤيتي بعد طول غياب، وودّعني، وهو يتلفت نحوي، حتى غاب في الممرات.

بعد أن قضت الأم أيام العدة، عدت مع جدي إلى البيت، في العطلة النصفية، فوجدت أُمي، وقد عادت إليها نصف دمويتها، مثل زهرة، جادها الغيث بعد الحباس، تهلّل وجهها، وشاعت فرحتها في الدار، وراحت تشوي لي طعاماً في الطابون، وصفا وجه الجدة، حتى غدا في لونه المعهود، كأن ملائكة، مرّت على الدار في غيابي، ومسحت بكفّها الرحيم، الأحزان عن وجوه الأهل، أو ربما، طغت بهجتهم بعودتي، على أحزانهم، ولو لأيام.

بعد يومين من وصولي الدار، خرجت عند الضحى إلى الباحة، أتنسم عبيراً، فكان الجو صافياً يروق فيه السحر، يعبق بأنفاس الربيع، والشمس مرحومة، تسطع فوق البيوت وتعامير الحقول، والعصافير تتطاير مزغردةً، بين الجدران وتلافيف الأشجار العالية، تعلن بهجتها بمهرجان الربيع.

على حين غرّة، طرقت علينا الباب، امرأة عم أمي، دخلت الباحة وهي تدستر، وهي عجوز شمطاء، كتفها مائل، مدمنة شمّ السعوط، جلست العجوز قرب الجدة، تحت أشعة الشمس، وراحت تتحدث في البداية، عن صحتها المعتلّة، وأخبار البلد، ولم تلبث، حتى مالت لحو الجدة، وراحت تهمس في أذنها بصوتٍ خفيض، لم أسمع منه شيئاً، فكانت ردّة الفعل في وجه الجدة عنيفة، توحي لغير السامع، بالمحنة والحزن العميق، فأدركت أن زيارة المرأة، كانت غير بريئة، وعندما علت نبرة الحديث بينهما، سمعت الجدة تقول بصوت فيه تحقير:-

- غابت أسود البر، ودور فيها، يا أبو الحصيني دور.

لملمت العجوز أطرافها، وخرجت غاضبة تهذي بكلامٍ مبهم، لم أفهم منه شيئاً.

في المساء، جرى حديثٌ بين جدي وأمي على انفراد، رفضت الأم فيه، رفضاً قاطعاً، أن تتزوج، ابن عمها، وفاءً لزوجها المرحوم.

في اليوم التالي، شدّني الشوق والحنين، إلى شعاب القرية ووهادها، خصوصاً والفصل ربيع، فقد ملّت عيناي حجارة القدس الصماء تتقنطر فوق بعضها، ورحت أهيم في الربوع، كيفما تقودني خطواتي، وبقيت هكذا، حتى مررت على مارس قمح، تمسّد عليه أنفاس الربيع المبلولة، فتميل سنابله وتستوي مثل أمواج البحر.

رأيت القبّرات تزغرد فوق أعشاشها في سماء البور، تشدو بألحان الفصل الأخضر الفتان، وشعرت لأول مرة، أن للريف سحرٌ، يفوق سكاكر المدينة.

ومثـل غافـلٍ، تنبهـت إلى صـوت نـاي، يتـسلل إلى أسماعي، من خلف فجٍّ للصخور، يطلُّ على منحدرات نحو الوادي، فشدّني اللحن، مثلما يجذب النور الفراشة، ويمّمت وجهي شطر الصوت، فكـان سـعدات يرعـى البقـر، ذلـك الفتى الشقي، الذي لم يعرف الكتاتيب في حياته، وقد أشـاع عنه الناس، أنه كان يربط هرّة صغيرة حول بطنهـا، بـسفيفة من قماش، يلقي بها على أسطح البيوت الواطئة، ثم يشدّها إليه، حتى تجرّ بمخالبها، لاحات الملبن ومفارش الزبيب.

جلست بجانبه على صخرة بيضاء، وأشـار بالنـاي إلى بقرة، تبرك في فسحة بين الحجارة، تخـور بأنفـاس موجوعـة على عزيز.

قال:-

- لقد فجع أبي تلك البقرة على وليدها، بعد أن باعه إلى قصّاب القرية، وكلما مرّ القطيع من ذلك المكـان، تقـف البقرة حزينة، تتشمم رائحة دم عجلها فوق التراب، بعد أن أصبح لحمه في بطون الناس مهضوماً،ولا تـبر حمكانهـا، إلاّ بعد أن أنهرها بالنّبوت.

قفز سعدات من جانبي، وسار لحو البقرة، لكي يريني، فصلاً عجيباً يصدر عنها، تمدد أمامها على العشب، ووضـع رأسه على ساعدها، فبدأت تلعق شـعره بلسانها، ثمـنهض مسروراً، وطلب مني، أن أعمل مثله، أحجمـت في البدايـة، خشية أن تغدر بي البقرة انتقاماً لوليدها، وعندما ألحّ عليّ، وضعت رأسـي علـى سـاعدها، ولمـا بـدأت تلعـق شـعري بلسانها، انسرب في جسدي تيّارٌ سحري، يفوق حنو البشر، وندمت على قتل السحالي والحراذين أيام الشقاوة، وآمنـت

بعدها، أن قلوب الأفاعي السامة، لا تخلو، من عاطفة وتحنان.

مرّت الأيام بسرعة، وأحسست بدفءٍ غامرٍ تحت جناح الأم، وكلما دنت نهاية العطلة، زادت رهبة السفر في قلبي، إلاّ أن شوقاً خفيّاً كان يشدّني نحو القدس، ليس حبّاً في وخم المدينة، بل للصحبة الجديدة، ومقارعة الأنداد، فهناك النظام الصارم مثل حد السيف، وهنا، الانفلات وحنان الأهل.

ومن كثرة حديثي أمام الأم والجدة، عن فارس عطا، ومناصرته لي على الشرّيرين في البداية، غدا حضوره في وجدانهنّ، مثل الشقيق العزيز، وحمّلتني جدتي له عند عودتي إلى المدرسة، أقراصاً من الزّلابية وحفنة من الزبيب.

بعد أن صرت في الصف الثاني، أدمنت المدرسة، حتى صارت مثل الدار بين الأهل، وأصبح وجودي فيها، أو الرجوع إلى القرية في أيام العطل سيّان، فقد طغت الصحبة

والطعام الجيد بين الأيتام، على حب الأهل وشظف العيش في الريف، وصار لي أصدقاء ومنافسون، محكومون بهيبة التعاليم الصارمة، وكنت انا ميّالاً بالفطرة، إلى الدقة والطاعة والنظام، وقد ظلّ المعلم يعقوب وفيّاً، يرعاني بقلبه وعينيه من بعيد، كما وعد جدي في البداية، عندما قابله أول مرة، في رام ألله، قبل عامين.

كنا نسير في دار الأيتام، على نظام دقيق، مثل العسكر، والقول الفصل، بين الخطأ والصواب، عصا الخيزران، نهجر الفراش قبل طلوع الشمس، يقضي كلٌ منا حاجته في الحمام بسرعة، حتى يتسع الوقت للآخرين، وبعدها نصلي جماعة، لمن هو طاهر، أو على غير وضوء، حتى يرضى عنا المعلمون، وإن قطعت المياه او تجمّدت في الأنابيب في فصل الشتاء، وتعذّر الوضوء، أقول في سرّي، نويت ان أصلّي صلاة الفجر، صلاة مدرسيّة، الله أكبر.

وقد انتابتني مرة نوبة من ضحك، لم استطع كبحها، عندما وقعت عيناي، على بيتين من شعرٍ رديء، مكتوبين على باب الحمام من الداخل:-

يا جالساً متفكــــــرّاً مــــــاذا تبيع وتشتـري

ارحم أخاً لك قد هلكفي البنطلون وقد (....ري)

عندما علم المدير بتلك الفعلة، كادت تنبجس من حلقه ضحكة مكبوتة مغلّفة بالغضب، وأمر البواب بمسح الكتابة عن الباب، وأطلق أفراد التعقيب من التلاميذ، كان المشرف ضابطهم الكبير، وعندما لم يتم التعرف على الفاعل، سُجلت الطرفة ضد مجهولٍ، وظلّ الأولاد يرددون البيتين فيما بينهم، مثل النشيد الوطني في دولة المجانين.

كرّت الأيام والشهور علينا مثل بعضها، كما تكرّ على صيصان المزارع، أكلٌ وشربٌ وتعليمٌ ونوم، ولا يُسمح لنا بمغادرة الدار، إلاّ بعد ضمانات، تحت طائلة العقاب، الذي

لا يخلو منه يوم، حتى أصبح الجلد بالخيزران مألوفاً على الأشهاد، بل والطرد في بعض الأحيان.

كان يُسمح للصغار يوم الجمعة، بالتجوال في محيط المسجد الأقصى وباب العامود، تحت رعاية الكبار، وكنت أجلس أحياناً، على حجر في الظل أمام مغارة سليمان، أدقق في وجوه الناس، خصوصاً عندما تكون جيوبي خاوية.

وفي مرة، رأيت جنود الإنجليز، يقلبون مقاطف النساء، ويتلفون خضار الباعة، بحثاً عن سلاح، فعدت مذعوراً إلى الدار، قبل أن يقع مكروه، وكانت ثورة ال 36 في بدايتها، وكنت في تلك السن، لا أعرف من السياسة، سوى عبارة، (سيف الدين الحاج أمين)، التي يرددها بعض الصبية من جيلي، ويعنون بذلك، الحاج أمين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا في فلسطين.

حين تعديت الثالثة عشرة، وصرت في الصف الرابع، بدأت أشعر بألمٍ في الثديين عند كل احتكاك، يشبه ألم الدمامل، وغدا كل ثدي منتفخاً، مثل فجة التين قبل النضوج، وصرت أتجنب معاركة الصبية، أخلع ملابسي الداخلية وأرتديها بهوادة عند كل استحمام، لئلا يحتكُّ القماش بالحلمتين.

حسبته في البداية، مرضاً عارضاً، لكنّ طالباً أكبر مني، قال لي، وهو يهزُّ رأسه عن ابتسامة خبيثة:-

- إنها تباشير البلوغ، فقد وضعت الآن قدمك يا صديقي، على العتبة الأولى، من دوّامة اللذة والشقاء.

تزامن ألم الثديين مع زغبٍ ناعم، بدأ يوشّح العورة بسمرة خفيفة، أضاف حرجاً جديداً إلى نفسي، ورحت أعدُّ لمعركة وهمية، لنيل الاستقلال عن مساعدة أمي، في أيام الإجازة، عند جلوسي في طبق الغسيل، وباب البيت مفتوحٌ، أمام عين الداخل والخارج.

وعندما اعتـادت نفـسي علـى تلـك المتاعـب، بـدأت تتعارك في جسدي خلايا خفيّـة، تحـثّ الـنفس علـى حـب الحياة، مثل زرّ من ورد، ينتظر شروق الشمس، حتى توقظه من سـباته، وبـدأت أتـشبب في هنـدامي وتـسريح شـعري، ورحت أطيل النظر إلى وجهي في المرآة،وصارت تتبدى على سحنتي كل يوم، مسحة جديدة من وسـامة الفتيـة، أورثتهـا ثورة الجسد الأولى، وطراوة العيش في المدينة.

كان أقرب الناس إليّ في الصف، فـارس عطـا الزيـر، وكانت أعصابه سريعة الاشتعال، كلما تعرض إلى ضيق، إلا أنه يحب الرسم والقفشات اللطيفة، كأنـه يفـرغ مـا في قلبـه الصغير، بعضاً من شحنات الضيم والمرارة، بعـد أن أعـدم الإنجليز والده، شنقاً في سجن عكا، صباح يـوم 1930 | 6 | 17، مع زميليه، محمد جمجـوم وفـؤاد حجـازي، بعـد ثـورة البراق.

حدثني فارس عن والده يوم إعدامه، حين طلب حنّاءًل يخضب به يديه، على عادة أهل مدينة الخليل في أعراسهم، وطلب من رفيقيه أن يُشنق قبلهم، لئلا يشرب حسرتهم، فكان له ما أراد، وعندما قاده الجلاد إلى منصة الإعدام، طلب منه أن يفكَّ قيد يديه، لأنه لايخشى الموت، وعندما رفض طلبه، حطّم عطا الزير السلاسل الحديدية بعضلاته القوية، وتقدّم نحو المشنقة، رافع الرأس مبتسم المحيا.

وقد خلّد الشاعر الفلسطيني الكبير، إبراهيم طوقان، ذكرى الشهداء الثلاثة، في قصيدته الجيّاشة، (الثلاثاء الحمراء)، التي مطلعها:-

ناح الأذان وأعول الناقوس الليل أكدر والنهار عبوس

أثرت قصص البطولات في نفسي، وكنت أغبط فارساً على تخليد والده في عقول الناس، وتمنيت في سرّي، لو أن أبي قضى شهيداً، وليس قتيلاً في عرس.

كان النوم بعد التاسعة إجبارياً، وكـان المـشرف يـدور علينا في الممرات ، بعد إطفاء النور متخفّياً، يتعقب الثرثارين في المهاجع.

وكلما جافاني النومفي بعض الليالي، أغمـض عـيني، ويدور في ذهني شريطٌ من أحداث، لـيس لهـا نهايـة، وكـان أكثرها تكراراً، مشهد فضيل، يعاودني في معظم اللي اليقبل كل غفوة، حتـى رسـخ في ذهـني، رسـوخ الـشمس في عـزّ النهار، كانت بدايته، في البلدة المجاورة لقريتنا، التي تمـرّ منهـا وسائط نقل، وشاهدت فيها عند الموقف قبل أربع سـنوات، حماراً، وامرأة، ورجلاً وسيماً، وسحابةً عابرة، فتعلّمت مـن الحمار الصبر والطاعة، ومن المرأة الكفاح والثبات من أجل لقمة العيش، ومن الرجل الوسيم، النظافة والمظهر البهـيج، ومن السحابة الغيث والعطاء، وعاهدت نفـسي، أن أقـبض علـى الـدين والـشرف قـدر المستطاع، وأن أشـقّ حيـاتي بأخلاقي، وليس بحد السيف، كما يفعل الأوغـاد، وفـضّلت

حب الناس لي، على عطفهم عليّ، وآمنت، بأن النفس، لا تخذل صاحبها إذا خلصت في قلبه النيّة.

ومن هنا، رحت أساعد في المطبخ، وأبادر بمسح المناضد قبل مد الطعام عليها، وأسعف النزلاء بالخبز والماء، حتى أطلق عليّ المعلمون، لقب المشرف الصغير.

غابت عني صورة أبي، وتعلقت، بالدار والصحبة الجديدة، وكلما أثنى عليّ المعلمون، زاد اعتصامي بالصدق والأمانة، ومن ثقة المشرف بأمانتي، كلفني بالعمل مع بعض البنات اليتيمات، في المبنى الثاني من المدرسة، والذي يفصله عنا، باب دائم الإغلاق، لا يفتح إلا عند ترتيب الأسرّة من قبل البنات، والغرف خالية من التلاميذ، وأوصاني المشرف، أن أكون مؤدباً في سلوكي.

كنت الطالب الوحيد، الذي اختارني المشرف من بين الذكور، لمساعدة البنات، في الأعمال التي تحتاج إلى جهدٍ وخفّة، كتعليق الستائر على الشبابيك بعد غسلها، أو قضاء

حاجاتهن من الدكاكين، حتى صار وجودي بينهنّ عند الحاجة مألوفاً، وكان يقوم بنفس المهمة طالبٌ آخر، فصلوه عن الدار مع بنت من جيله، بعد أن وجدوه غارقاً معها في الحب حتى أذنيه، بأمارة المكاتيب والصور، التي ضُبطت، في حقيبته وجيوب ملابسه عند الغسيل.

قدّرت عبء المهمة، التي حمّلني إياها المشرف، وعاهدت نفسي، أن أظلّ أميناً عليها، لكنّ الخط المستقيم في سلوكنا، لا يعجب جميع الناس، وعيّرني طالبٌ ثرثار في عنبرنا، حين قال أمام الزملاء:-

- لو كنت كامل الأعضاء، لما دعوك تسرح وتمرح بين الجميلات.

ولما شعرت أنه يحطُّ من ذكورتي، قلت له على الفور:-

- إنّك تتحدث بلسان من ينام في سريره، وليس بجانبي تحت اللحاف. ضحك التلاميذ ضحكة عالية، ورفع

فارس عطا، قبضته في الهواء، يهنئني بإعجاب، على ردٍّ سريع، له كلّ المعاني.

والبنات مثل الصبية، لا يتركن صاحب الدين على دينه، فكانت زهرة دمها خفيف، كثيرة الحركة والمزاح، تتحدث في وجودي بين البنات، بعبارات لها معاني كثيرة، بيضاء اللون، عامرة الصدر، لها عينان واسعتان، ليس لأعماقهما قرار، في صوتها بحّة خفيفة، تثير الأعضاء في جسم التمثال.

كانت البنت، تروح وتجيء، تعرض كل شيء في حركاتها، دون أن تعيرني اهتماماً، لكنني على يقين، أنها تراقبني في وجدانها، بعيونٍ سحرية، معلقة في الهواء، مثل آلات التصوير الخفيّة، وبقيت راسخاً في ثباتي، مثل نورسٍ يقف فوق صخرة، يستعيد توازنه بجناحيه، كلما هبت عليه الريح،

مع الأيام، أشغلت زهرة بالي كثيراً، وصارت نفسي تتردّى بين الرفض والقبول، ورحت أتجاهل كل ما يصدر عنها من إيحاءات، إلاّ أن قلبي كان يتوق إلى المزيد، فأصبحت حياتي مثل بركة ماءٍ راكدة، هبّت عليها ريحٌ من جميع الجهات، وانبهم أمري على نفسي، ولم أعد أدري أي إنسان أكون، ولا ماذا أروم، فمرة أفسح لها الطريق، ومرة أسدّها بالصرامة، فأصبحت ابن الساعة، أضعف وأقوى عند الشّد والرخاء

كان التلاميذ يستحمون ليلة الجمعة، ويبدّلون ملابسهم، استعداداً للصلاة في المسجد الأقصى، وكلّفني المشرف عصر الخميس، أن أتسلّم ملابسهم المكوية من قسم البنات، وترتيبها على الرفوف، رحت خالي البال، وسريرتي صافية، ويا للهول، وجدت نفسي أمام زهرة، بجانب عربة الغسيل، ووجهها يطفح بالنور، فصعد الدم إلى وجهي، واحمرّت أذناي، وكلما ناولتني رزمة من ملابس، تعثّرت عيناي في قراءة الأرقام، فشعرت زهرة، أنني وقعت

أسيراً بلا معركة، وحين انشغلت البنات في غرف أخرى، وخلا المكان من عين الرقيب، ضحكت البنت، وعيناها دامعتان، وراحت تتحدث عن مأساتها كأنها شهيدة.

أمها فلسطينية، ووالدها مصري، هرسته سكة الحديد في مدينة اللد، عندما كان يقوم بأعمال الصيانة، وعندما أصبحت البنت في عمر الزهور، نزلت أمها ضرّة على امرأة أخرى، فأودعت ابنتها الدار مكرهة، بعد أن أجاز لها القضاء، أنها من بنات الشهداء.

ولا سلوى للبنت بين جدران المدرسة، سوى زميلاتها اليتيمات، وكلما أتت في حديثها على ذكريات أليمة، تتنهد والدموع تتفصّد من عينيها، فليس لها في هذه الدنيا، لا أخ ولا أعمام مثل بقية البنات.

كلما تعاطفت معها، ترهبني تعاليم المدرسة الصارمة، التي تودي إلى الطرد،وحاولت أن أتجاهل أمرها، وأنا راغبٌ فيما تبوح، وأصبحت إرادتي مثل بندول الساعة، تتأرجح

بين الرفض والقبول ، وكلما تغاضيت عن حديثها، تعيدني بصوتها المذعن المبحوح، إلى دوّامتها من جديد.

بعد أن داخلني خوف، قررت في سرّي، أن أتقي شرها، فالرب أرحم في تدبير العباد، ولما رأتني جامداً مثل اللوح، افترّ ثغرها عن ابتسامة ساخرة، وأرسلت من شفتيها قبلة في الهواء، وقالت بصوت يشبه الهمس:-

- أحبك يا حمار، ألم تفهم؟

أصابتني رعدة، وتعارك الدم في جسدي، ورمقتها مثل المسطول، ولما عاد لي توازني، عجّت في صدري غلاظة الريف، قلت لها بصوتٍ فيه تهديد:-

- سوف أشتكيك إلى المدير.

قلبت البنت عينيها، وزمّت شفتيها، وقالت:-

- الفلاح فلاح، ولو في نعيم المدينة ربا.

ساد بعدها صمتٌ مطبق، حتى فرغنا من ترتيب الملابس، وانصرفت البنت مكسوفة، تجرُّ خلفها أذيال هزيمة.

عدت إلى السكن مثل المهووس، أبحث عن فارس عطا الزير، وأنا في حالٍ غير حالي، فوجدته منكفئاً فوق السرير، يرسم أشكالاً ما أنزل الله بها من سلطان، كلّها طلاسم، لم أفهم منها شيئاً، إلاّ أنها توحي بالقلق والضيق.

نزعت من يده الأوراق، وعصرتها في قبضتي، ورحت أنظر في عينيه مثل المطرود، فضربني على يدي، وخلّص الرزمة مني، وقال:-

- يبدو أن وراء الأكمة ما وراءها.

رحت أسرد عليه ما حدث، بهوس من فاز بالنصر، فتنهّد طويلاً، وقاطعني متهكماً، وراح يقول:-

- كأنك تخشى على عذريتك من فحولة اليتيمات ! وإن كنت لا ترغب في النعيم، فأنا موجود، ونفسي تتوق إلى صدر حنون، خصوصاً في هذه الدار المقفرة.

قلت لهو أنا من العجب في نهاية:-

- لكنها تعدّت حياء الأنثى، ولا يليق ببنت مثلـها أن تتفوه بالحب دون قبول.

هزّ رأسه استخفافاً، وقال:-

- يا غبي، كلمة أُحبك من أفواه الجميلات، نادرة مثل المعدن الثمين، يتمناها الملوك مـن أفـواه الجـواري، فالبنـت رأت فيـك صـفاتٍ أعجبتهـا، عبّـرت لـك بكلمـة مباشـرة صريحة، فلا يليق بك أن تصدّ من أبدت لك الإعجاب.

أطرقـت قلـيلاً، وشـعرت بفداحـة مـا صـدر عـني، ورحت أبحث عن حجج أخرى، تعزز رأيي، وقلت:-

- لكنها قالت، الفلاح فلاح، ولو في نعيم المدينة ربا !

ضحك طويلاً، وقال:-

- هل يصبح البربري من أهـل المدينـة، مـا لم يتطبّـع بطباعها.؟

نظر في الرسومات بين يديه، ثـم رفـع وجهـه نحـوي، وقال بلسان العاقل المأزوم:-

- إسمع يا عاشور، لقد أبكـى إعـدام أبـي ورفيقيـه، قلب الشجر والحجر على أرض فلسطين كلها، لكن للحيـاة أحكام، تسير كما أراد لهـا رب العبـاد، فخـرج النـاس مـن أحـزانهم، يـأكلو ن ويـشربون ويحبّـون، كمـا أرادت لهـم الطبيعة، وكما للوطن على دم الحـر حـق، فلقلـب العاشـق عليه حق، وكل شيءٍ بحسابه، ولو كنت مكانك، لخشيت الله في قلوب العذارى، ولأسعدت الـصبيّة بـالنظرات الحنونـة، التي تحمل معها معاني الحب السامي، دون مخاطر أو فجور.

توقف فارس عن الكلام، وبلع ريقه، وأطـرق قلـيلاً، ثم أدار وجهه نحو النافذة، فبانـت عينـاه تلمعـان بالـدموع، وشدقاه ينبضان مثل عضلة القلب الضعيفة، وتابع يقول:-

- لقد جمعتنا الأقدار في هذا المكان، ذكوراً وإناثاً على هم واحد، وهو اليتم، فحرمتنا الدنيا عطف الوالـدين، بعـد

أن قدّم آباؤنا دماءه مرخيصة من أجل الكـل، والكـل يخـل علينا بالعطف والحنان، وما فاض عليهم من نعـم، ولم يبـق لنا من رأس المال، سوى محبة في قلوبنا، فلا نبخل بهـا علـى بعضنا، حتّى نهوّن عما في صدورنا من أحزان.

مرّت فترة صمت، أطرق كلّ منـا في ناحيـة، يفكـر في حديث الآخر، وتنبّهت فجأة إلى نشيج، فألفيت فارساً يختنق بالدموع، فدعوت إرادتي أن تمدّني بالثبات، ورحت أجابره وأهوّن عليه، وقلت له:-

- ماذا حلَّ بك أيها المجنون، وقد كنت توّاً عاقلاً؟

مسح دموعه بكمِّ قميصه، وتنهّد طويلاً، وقال:-

- كل مجدٍ له ثمنٌ فادح، يدفعه البطل من دمه ودموع أبنائه، فأنا أكابر احيانـاً، ببطولـة أبـي أمـام النـاس، وكلمـا اختليت مع نفسي، أجد في بطولته جنوناً ورعونة، خصوصاً بعد أن هجرتني أمي، وتزوجت من رجلٍ غريـب، لا يحـسُّ بإحـساسي، ولا اسـتطيع أن أصـف لـك، مـدى حزنـي

وحرماني، كلما عاد كلٌّ منكم إلى ذويه، في أيام العطل والأعياد، وأنا أظل حبيس المدرسة، دون بيت يرعاني. وها أنت الآن، تجد أمّاً، تحنو عليك، عندما تعود إليها، في المناسبات، كما بعث الله لك من وراء الحجب، غادة جميلة، اهتدت إليك بقلبها من دون الأيتام، ولو أحبتني بنت مثلك، لأشغلتني عن حزني قليلاً، وأنستني بعض الحرمان.

كان فارس عطا الزير، متقلب المزاج، لكنه مرهف الحس، يهوى الرسم ويكره الخطيئة، وقد تعلم في دار الأيتام نسيج الخيزران، وسببت له تلك المهنة، عاهة مستديمة، عندما بعزت قصبة إحدى عينيه في متلف، استعاض عنها، بعين من البلور، كأن المهموم تنقصه هموم.

لكن تلك العاهة، لم تعق فارسًا عن تبوّء المكانة الأولى، في النخوة والإقدام بين التلاميذ، فكان شهماً جارحاً، وصاحب طرفة في آن، يضع وزنه دائماً في كفّة المظلوم، وإن غضب لأمر ما، يُتبع غضبه بابتسامة، وتعوّذ

من الشيطان، ومن يفهمه من التلاميذ، يأتمنه على روحه، ومن يصعب عليه الفهم، يخشاه ويجافيه، ولن أنسى، كيف نهر مرّة بعض الفتية العرب، وهم يلاحقون بنات يهوديات، في زي بدويات، في عيد المساخر، بالرغم من أنْ والده، قد تمَّ إعدامه في سجن عكا، على أيدي الإنجليز، بسبب غيرته على العرب، وكيد اليهود.

بعد ان أنهيت الصف السادس، صار عمري ستة عشر عاماً، تحوّلت إلى فرع النجارة، وتقاضيت في الشهر الأول، نصف جنيه، وظل المعاش يزيد كل عام، حتى بلغ الستة جنيهات عند التخرج، وصار القرش يعزُّ عليَّ، لا يفلت مني بسهولة، خصوصاً، بعد أن قطع الأهل عني عطاياهم، ظنّاً منهم أن المعاش يقضي حاجاتي، وكنت أعذرهم لضيق اليد، بل وأحمل لهم بين يدي، حلوى وحاجات، كلما عدت إليهم في أيام الإجازات.

في السنة الثالثة في مجال الصنعة، صفت نفسي وصرت حسّاساً، واختارني معلم الموسيقى، أحمد صبري أباظة، ليعلمني العزف على آلة النفخ (برتون)، مع الفرقة النحاسية للمدرسة، البالغ عددها، خمسة وعشرون عازفاً، من خيرة الشباب، والمعلم هذا، تركي الأصل، يرتدي بدلة أنيقة، وفيصلية، تضفي عليه سمو المظهر، وعراقة الكار، كأنه ينحدر من أصولٍ ارستقراطية.

كان الرجل لطيفاً معنا، يواجه كل هفوة تصدر عنّا، بابتسامة حتى تزول، أحيت الفرقة فرحاً، في قرية بيت دجن، في ضواحي يافا، وعرساً آخر، في دار الوجيه عبد الرحمن العزّة، في بلدة بيت جبرين، قضاء الخليل، وكنّا نعزف في كل عرس، مارش سالونيك، وآخر اسمه إزمير، وكان نفير الأبواق والمصنّجات، يتناغم مع جلجلة الطبل في الساحات وبين البيوت، مثل صراخ الجن بين الوديان، يقف له شعر الرأس، ويزلزل الأحشاء في الصدور.

كان المعلـم أحمـد، يـوزع علينـا الإكراميـات والهـدايا بالعدل والإنصاف بعد كل حفلـة ، وكـان قـدوة في الـسمو وخفة الروح، ومنقربه منّا، كنت أعتبره يتيماً مثلنـا، يرتـدي زي المعلمين، وكانت قطة بيـضاء، تقـيم في المدرسـة، تقبـل عليه من دون الناس، فيأخذها بين يديه، تغمض عينيها على صدره، وكـان اسمهـا (شـولة)، وتعـني بالعربيـة، الـشّعلة، وكانت القطة مبجلة بين التلاميذ، حتـى أن أحـد الظرفـاء، أطلق على المعلم في الخفاء، اسم، أبا هريرة.

في عـصر أحـد الأيـام، نظـرت إلى وجهـي في المـرآة، فغـرّتني نـضارة البـشرة وعـضلات الـذراعين، وتـصورت نفسي، نجماً سـاطعاً يـسبي العيـون، و تهفـو إليـه القلـوب، وداخلتني نشوة غريبة، وطلبت مـن فـارس عطـا، أن يخـرج معي بعد العصر، إلى حارات البلدة القديمة، علـى أن نعـود إلى الدار قبل الغروب، خشية العقاب.

رحنا نـضرب في الأزقّـة والأسـواق، كيفمـا تقودنـا خطواتنا، حتى وصلنا بـاب الأسـباط، ثـم تابعنـا إلى بـاب الخليل، الذي يفضي إلى شارع يافا وباب الواد، ابتعت علبة سجائر بقرش ونصف، حتـى أعـزّ شـبابي، فتحـت العلبـة، وعرضت السيجارة الأولى على فارس، فأعرض عنها، وهو يقول:- سيجارة على سيجار ة، تُقيم عمارة، فأشعلتها بـين شفتي، فكاد عطنها يزهق الروح، فلعنتهـا، وهرسـت العلبـة كلها تحت الحذاء.

كانت الدار شعلة من الوطنيـة والحمـاس، والتلاميـذ على تباين أعمارهم، يتـداولون أخبـار الثـوار وبطـولاتهم، وقد رُفعت الأعـلام الـسوداء في الـساحة، عنـدما أعـدمت حكومة الإنتداب، الـشيخ فرحـان الـسعدي، إبـن الثمـانين عاماً، يوم 22\11\1937وهو صائمٌ في الشهر الفضيل، وكان الشهيد، الساعد القوي لعز الدين الأقسام، وقـدجيء بابنـه الصغير أحمد إلى الدار، ويبدو أن والده الـشيخ، تـزوج مـن

أمه وهي صغيرة، وإلاّ لما بدا البون شاسعاً، بين عمر الصبي، وعمر والده الكبير.

لضيق الساحات في دار الأيتام، رحنا نلعب كرة القدم، عندما صرنا شباباً، في ملعب الكلية الإبراهيمية، في شارع باب الزاهرة،خارج أسوار البلدة القديمة، وكان مديرها في ذلك الحين، بهجت أبو غربية، رفيق الشهيد عبد القادر الحسيني الحميم، الذي كان مصدر إلهام للتلاميذ من جيلنا في التضحية والفداء، وتفشّت الوطنية بين الشباب، حتى طغت على الدين في وجدانهم، وصار كل واحد منا يحلم، وروحه تفيض دفاعاً عن الوطن، وتمنيت لو أموت شهيداً مثل عطا الزير، حتى أعوض عن مجد أبي، الذي أفناه في جهد ضائع، ورحت أجلس أحياناً في العتمة، في نافذة الغرفة، التي تطلُّ على شارع الواد، أستمع إلى صوت الشاعر الزجّال نوح إبراهيم، من جرامافون مقهى القصاص، الذي كان يثير حماسة جيّاشة، يقف لهولها شعر الرأس، وتحثّ النفس على الجهاد.

عندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، في شباط 1941 ، رحنا نهلل ونكبر، وأضيئت المشاعل في النوافذ وفوق أسطح البيوت، وتحولت القدس إلى مهرجان للنصر، وراح الناس يمرحون ويتعانقون، ونُثرت الحلوى فوق الرؤوس، أملاً في رحيل الإنجليز عن فلسطين بعد العراق، لكن الفرحة كانت حلماً، وتحولت القدس إلى مناحة، بعد أن أطفأت قوتهم العاتية، بهجة النصر في النفوس، فاسودّت وجوه الناس في القدس، كأنهم خرجوا توّاً من حريق.

بعد أن ذوت الفرحة في القلوب، أمعن الإنجليز في التنكيل، وراحت عساكرهم، تصفُّ جموع الناس عند أبواب السور، يدققون في ثياب المصلّين، المتوجهين إلى المساجد والكنائس، ويتلفون مقاطف الفلاحين.

في ذروة الحرب العالمية الثانية، قامت فرقة الموسيقى التابعة للدار، بزيارة إلى إذاعة الشرق الأدنى، على شاطئ

الشباب في مدينة يافا، وقد شاهدنا في ردهاتها، الفنان اللبناني، حليم الرومي، ووقفنا ندقق مشدوهين في هيئته وهندامه الأخاذ، كان الرجل حليق الوجه ناعم البشرة، يشعُّ من جبينه النور، وحين تأملته طويلاً، قلت لزميل يقف إلى جانبي:- لا بدّ أن الرجل يقتات على الشهد والنبيذ، وابتهلت إلى الله، أن ينعم علينا بالمكرمات.

كان يوم الجمعة، يوم انطلاقة حرة، نهيم في شوارع القدس وحواريها على هوانا، على أن نعود إلى الدار، في الخامسة قبل الغروب، وكانت ودائعنا في حوزة البواب، يعطي كل نزيل قروشاً، تتناسب مع رصيده في دفتر الأمانات، وكان نصيبي في البداية شلناً في الأسبوع، اشتري ما يلزمني مثل التلاميذ، أستأجر أحياناً دراجة هوائية من حارة المصرارة، بقرش ونصف، ألهو بالركوب عليها، في ساحة مدرسة المطران خارج باب العامود.

في يوم من الأيام، عبرت مع بعض الرفاق باب الخليل، الذي يقود إلى المقبرة الإسلامية، ودخلنا سينما (ركس)، التي تقع بين شارع يافا، وشارع مأمن الله، الذي يطلق عليه اليهود، (ماميلاّ)، وكان أول فيلم شاهدته في حياتي، عام 1942، قيس وليلى، بطولة أمينة رزق، وبدر لاما، وقد نبّهت أحداث الفيلم في قلبي، بذرة الحب الأولى، ورحت أتخيّل يوماً بعد يوم، عشّاً زوجياً، تختال في صبية مثل ليلى، أخذت حسنها من ألوان الطبيعة، على أن تكون سليلة أصلٍ وفصل.

رحت أستعرض في خاطر يكل ليلة، أطياف اليتيمات قبل الغفوة، على شريط سريع يمرّ في رأسي، علّني أختار من بينهنّ رفيقة درب بعد التّخرج، إلاّ أنّ عقدة عجيبة، كانت تحول بيني وبين الفكرة، وهي أنه لا يجوز الزواج من بنت من بنات الدار، مثلما لا تحلّ الأخت لأخيها، لأن الهمّ كان يجمعنا على الحرمان، حتى غدت المشاعر والأحزان متآخية.

قبل التخرج بعدة أشهر، صار عمري واحداً وعشرين عاماً، وقد منحني المدير إجازة إجبارية، حتى يبرأ إبهام يدي، من جرحٍ قطعي، طالته أسنان المنشار، فحملت نصف متاعي، وعدت إلى البلد.

حين وصلت الدار، ألفيت جدتي غير موجودة، فشعرت أن الأسرة غير كاملة النصاب، فداخلتني وحشة، فلاحظ جدي شوقاً في عيني، وطلب منّي أن أحضرها من دار أخيها عطا الله، التي غبت عنها سنيناً طويلة، زادها وجودي في القدس طولاً، بسبب ما حملتني الدار من أعباء.

في صبيحة اليوم التالي، ركبت حماراً عند طلوع الشمس،ورحت أقطع الحقول في مسارب ضيقة، بين كروم الزيتون، وكنت أرى على جانبي الطريق، رجالاً يترنّمون، يعتلون سلالم من خشب، ونسوة يجمعن الحب، على مفارش تحت الأشجار.

عندما وصلت القرية، أبلغتني عجوز أن أصحاب الدار في الكروم، وأرشدتني إلى أول الطريق، وعند الضحى، أدركتهم مشغولين في جمع الحب، وكانت بين الحضور صبيّة بيضاء، فارعة الطول، تشبه عود القصب، تنبعث من أعطافها رقة وحلاوة، ترد الروح للمغشي عليه.

فكانت مزنة، أول من فتحت عينيّ على الحب، وأيقظت بحسنها أنغاماً في قلبي، فقد رأيتها حال وصولي، تقف على صخرة بيضاء، تتطاول على رؤوس أصابع قدميها، تلتقط حبات الزعرور عن الفروع، وذووها منهمكون في جني الزيتون، فلاحت منها لفتة نحوي، فبدت لي من بعيد، مثل ظبية تتشمّم النسيم، فنزلت في قلبي نزول السهم في الطين.

والنظرة الأولى بين الحقول، لها مفعول السحر، تصيب القلب عادة في مقتل، وهي غير النظرة العادية، التي نتواصل

بها في زفرات البيوت، فقد توحّدت حواء مع آدم، حين شخصا في عيني بعضهما في العراء، بين الجداول والسهول.

ولكل منا فتاة أحلام، تظهر له في ربيع حياته مثل الحلم، فتنثر في خياله طيفاً زاهياً في بهاء الزهور، ومن منّا لا يذوب حنيناً، إلى تلك اللحظة العجيبة، التي تنبّه فيها إلى حبيبة العمر، فحرمت بسحرها عينيه طعم النوم؟

باختصار، علّمتني مزنة، عشق الجمال بجمالها، فبدت لعيني عند النظرة الأولى، مثل حورية نزلت من السماء، تفيض من بسمتها رقّة وحلاوة، فكانت أول مخلوقة، فتحت عينيّ على الجمال، وأنشدت على مسمعي، أول بيت من قصائد الحب.

كان والدها خالي عطا الله، ملاّكاً في القرية، له ما يربو على ثلث أراضيها، حارب في البلقان في عزّ الشباب، وعندما غاب نجم الدولة العثمانية، عاد إلى البلد، وعمل طوّافاً للأحراش مع حكومة الإنتداب، وصار يتقاضى

معاشاً معقولاً له وللفرس، التي يجوب على ظهرها السفوح والوعر، فعشق الأرض وعشقته، وكانت قيمتها في ذلك الحين، لا تساوي في نظر الفلاح شيئاً، فابتاع جزءاً من الكسالى، وخلّص الباقي من براثن الإقطاعيين، الذين سلبوها من أصحابها في سنوات الفقر والجوعً.

استصلح الرجل ما استطاع من أرض البور، وغرسها بأشجار الزيتون والحبوب، فصارت تفيض عليه في معظم المواسم خيراً، حتى غدا مع الأيام رمزاً للقرية كأنه واليها.

كان خالي عطا الله تلع البنية، غليظ القسمات، مقرون الشاربين، وبالرغم من تقدمه في السن، ما زالت صرامة العسكر، بادية على وجهه المربوع، ونبرة الإيعاز تغلب على صوته الجهور، وطالما سمعته يتحدث بين الناس بجسارة، كنت أعتقد أنه لا يموت مثلهم، بل يظلُّ مخلّداً، ولو بعد حين، حتى يقوم بواجبهم عندما يموتون ،وبالرغم من

الهالة المبهرة التي كانت تجلله في كل موقف، إلاّ أنه كان حنوناً، قريب الدمع عند الأزمات،

وكل من يدخل القرية، تأخذه الدهشة من عذرية غاباتها، حيث تكسو أشجارها أرض الوعر، وتظلل فروعها مسارب الحقول، غرس الرجل أرض البور بالأشجار الحرجية، بمساعدة عمال الزراعة، وتشجيعٍ من مديرية الأحراش، فكان فطيناً واسع الخبرة، يعرف كيف يستفيد من كنزٍ مهجور، في حوزة أناسٍ عيونهم مفتوحة، وقلوبهم بلا دليل.

لم يكن خالي عطا الله، مستبدّاً ولا ظلوماً، لكن جهل الناس، وقلوبهم المسكونة بالخنوع، فسحت له الطريق على عرضها، وكانت أقصى طموحاتهم، النجاة في الدنيا من المرض والجوع، وأرض حرام، تخرج الثمر في حوزة رجل عاقل، خيرٌ من أرض حلال، ميتة يملكها الجهلاء.

ربما كانت أهوال الحرب في البلقان، علّمت خالي عطا الله، الشيء الكثير، فقدّر فضل الغابات على إبقائه حيّاً، بعد أن كان يختفي بين أغصانها عن مرمى الرصاص.

كلما كان يخطر إلى رام الله، يركب فرساً يقودها خادم، حتى توصله إلى قرية تمر منها وسائط نقل، يرفع فوق رأسه مظلّة زرقاء، تقيه حرَّ الشمس، وعند العودة، ينتظره الخادم في نفس المكان، حتى توصله الفرس إلى باب الدار، فكانت مكانته بين الناس، مثل عمدة الكفر في الريف.

انقضت ثلاثة أسابيع من العطلة، زرت خلالها دار خالي عطا الله مرتين بأسبابٍ ملفقةٍ، حتى أملّي عينيَّ من حسن الصبية عن قريب،وقد استقبلني والدها في المرة الأولى بحفاوة، لكنه في المرة الثانية، كان أقلَّ حماسة، فشعرت بوطأة ظلّي على أهل الدار، وكانت مزنة تروح وتجيء دون اهتمام، لكن لفتاتها توحي أنها تعي ما يدور، وداخلني إحساس، أن نسب أصحاب الجاه ليس سهلاً، فوالدها

وجيه له شأن، وأنا طالبٌ في أشهري الأخيرة، والزواج من بنات الأصول، يحتاج إلى وزنهنّ من ذهب، وجدّي لا يملك من الدنيا شيئاً، سوى ما تجود به الأرض، من الزيت والزيتون والزبيب والتين المجفف،فأين الثرى من الثريا؟، والتطلّع إلى النجوم طويلاً دون نيلها، يكسر العنق،

كان أكثر ما أخشاه، أن يأتي صاحب نصيب، ويخطفها في لمح البصر، وزواج الأبناء عند الفلاحين، يكون في أغلب الأحيان مثل الموت، يأتي فجأة دون سابق إنذار، والحب في عرفهم من الكبائر، والآبار المهجورة في الحقول، لها أسماء عاشقات، خرجن عن طوع الأهل، ألقوا بهنّ في القيعان، بين الأفاعي والهواء الفاسد.

عدت إلى القدس مهموماً، مثل شاة خلّفت وراءها حملاً رضيعاً، وبعد وصولي بأيام، أبلغنا المدير، أنه تلقى دعوة، من محمد بشير قدّورة، رئيس نادي خرّيجي دائرة

الأيتام في حيفا، ليقوم طلاّب المرحلة الأخيرة، لزيارة النادي، مع رحلة ترفيهية، إلى شمال فلسطين.

كان الفصل ربيعاً، وغابات الكرمل، تبدو للعيان فوق السفوح، سمراء مثل الليل، بعد أن غسلها الشتاء من غبار الصيف، تجلس بينها قرى صغيرة، بيوتها بيضاء، تلمع تحت الشمس، والبحر على طول الطريق الساحلي، داكن الزرقة، يلتحم مع الأفق، عند أطراف الغيوم البيضاء، فشعرت لأول مرة، بطعم الحياة بعد التيتم.

كانت فلسطين إبّان الحرب العالمية الثانية، مباحة للغرباء،تعجُّ جبالها وسهولها، بمعسكرات الجنود من أغرار المستعمرات البريطانية، التي لا تغيب عنها الشمس، تشبه حظائر الأغنام، المعدة للنحر، عشيّة يوم العيد، فكان منهم الأفارقة والعرب والهنود.

كان عساكر الهنود، يتوارون تحت الأشجار، في محيط عين فراضيّة، على مشارف مدينة صفد، خشية من طائرات الألمان، التي كانت تجأر صدفة في الجو.

توقفت الحافلة عند النبع، وشربت من مائه بلا وعي، فحلّت برودته في صدري، مثل سقوط الثلج على حديدٍ محموم.

نزلنا ليلة واحدة في صفد، في فندقٍ يسترخي بين الأحراش، وعند العصر، قدّموا لنا وجبة من لبن ومعجنات بعد جوع، ما زالت لذّتها بين الأسنان، تذكّرني بساعات العمر، المحسوبة في ميزان الأيام السعيدة.

قبل الغروب، بدا لنا جبل الجرمق واضح المعالم، يجلسشا خصاً في سكينة العابد، مثل هرمٍ خرافي، تكسوه فروة خضراء، تذهّبه شمس الأصيل في أفق مفتوح.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، 1945، تخرجت من دار الأيتام نجّاراً، وعملت في معسكر بيت نبالا، قرب مطار

اللد، الذي أسماه اليهود بعد نكبة فلسطين الأولى، (مطار بن غوريون)، وكنا نعمل عرباً ويهوداً، تحت إدارة الإنجليز، وكانت تحدث بيننا وبين اليهود مناوشات، بلغت ذروتها، حين قامت عصابة منهم، بخنق جميل الطريفي، وألقوا به في حفرة امتصاصية.

كنت أعود في أيام الإجازات إلى القرية، أتلمّس أخبار مزنة، على لسان عمّتها، (جدّتي)، وفي المرة الأخيرة، قالت لي:- إنهم استأجروا بيتاً في رام الله، بقيمة جنيه واحد في الشهر، حتى يكون أبناؤهم قريبين من المدارس العليا، وأقامت الصبية معهم، حتى تعتني بهم، وظل الوالدان في القرية، يشرفان على المواشي والحقول.

لاحق خالي عطا الله، أبناءه في المدارس، حتى حاز الكبير منهم، على دبلوم الزراعة، من معهد خضوري في مدينة طولكرم، وصار أولاده قدوة بين أبناء الريف، وغدت

الأسرة في أذهان الناس، تتربع على سدة العز والعلم والجاه.

بعد أن اشتعلت الحرب بين العرب واليهود، وحلّت النكبة في فلسطين عام 1948، رحلت مع الراحلين إلى البلد، قعدت عاماً دون عمل، ذقت فيه طعم الخردل، فقد جاع الناس في تلك الفترة، وسكن اللاجئون في الخرابات وتحت الأشجار في الحقول، وتفشّت بينهم حشرات القمل والبراغيث، وشاعت الرذيلة، وراح الناس يسرقون بعضهم بعضاً.

في تلك الفترة العصيبة، تواريت عن أهل الحبيبة، حتى لا أبدو في عيونهم، غاوي عشق وجيوبي فارغة، وكنت أتوجس كل الخوف، أن يأتي أحدٌ غيري، ويخطفها في غفلة مني، قبل أن أنهض من ظروفي القاسية.

عندما أوصد النحس باب الرزق في وجهي، قررت السفر إلى عمان دون دليل، لعل النحس يسلاني في المدينة،

وحين علمت جدتي بقراري، اسودَّ وجهها، وأضربت أمي عن الطعام، أما الجد، فقد ظل رأيه حبيس الصدرً.

بعد يومين، وجدت نفسي في حافلة، تقف قرب الرصيف، أمام باب الزاهرة في القدس، يتكئ سائقها على جدار من حجر، يدلل على السفر إلى عمان، بصوت غليظ، يشبه نعيب الغراب، لم يمض وقت، حتى جلس الرجل خلف المقود، وراح ينظر في وجوه الناس في المرآة.

كان وجه السائق مهوشاً، وثيابه كثيرة الطيّات غير نظيفة، عيناه جاحظتان، تدوران بين المرآة والنوافذ، يرد التحية على أصحاب السيارات التي تقابلنا في الطريق.

كانت الطريق ضيّقة، تنحدر نحو الأغوار بين هضاب بيضاء، خطّت على بطونها الطبيعة، شعاباً وأخاديد غاية في الروعة، وعندما وصلنا بلدة أريحا، توقّفت الحافلة قرب جدول عين السلطان، غسل الركاب وجوههم وأيديهم في

الماء، واستراحوا قليلاً، وابتعت كيساً صغيراً من بلح، وجدت نصفه مغشوشاً.

واصلت الحافلة المسير، حتى قطعت النهر على جسر من حديد، ولم تلبث، حتى عبرت طريقاً كثير التعاريج، يحاذي وادي شعيب، عند أقدام جبال شاهقة، توحي وعورتها، أنها أوكار للنسور.

حين نزلت في عمان، رحت أتلفت حولي مثل الغريب، وبدأت تواً أبحث عن عمل، حتى لو كان حارسا أو بوّاباً، وعند الظهر، إهتديت إلى منجرة، على الثلث الأسفل من درج الكلحة، الذي يختصر الطريق إلى جبل اللويبدة، لمن يصعده مشياً على الأقدام.

كان صاحبها كبير السن، أشيب الشعر محني القامة، يعاني ضيقاً في التنفس، فكان اللقاء الأول، كأن كلٍ منا كان يبحث عن الآخر منذ سنين، طلب الرجل مني في البداية، تجميع خزانة صغيرة، مركونة الأجزاء قرب الجدار، ولا

أعرف، هل كان العمل ملحّاً، أم هو تجربة من امتحان، وحين أنجزت العمل سريعاً، انفرجت أساريره، وقادني إلى ملحقٍ فوق السطوح، فيه سرير وحمام صغير، وقال:-

- تدبّر أمرك في هذا المكان.

كلما كان الرجل يأتي على ذكر الأجير السابق، ممدوح، يقرنه بالسوء، ولو استمر معه طويلاً، لعاث في مصدر رزقه فساداً، وكلما سمعته يلعنه بعد تسريحه، تدفعني الغيرة إلى الإخلاص في العمل، وعدم التفريط في خشبة أو مسمار.

بعد شهر من وجودي في الورشة، شدد المرض قبضته على المعلم، رقد له في المستشفى الإيطالي اسبوعاً، جاءت خلاله زوجته إلى الورشة مرتين، لأخذ الغلة، وحين وقع بصري عليها أول مرة، حسبتها إحدى بناته، فكانت ريّانة مربوعة، خدّاها مشطوفان، مثل بروة الصابون البيضاء، يوحي زواجه منها، أنه اشتراها من أهلها بالمال، وكانت في

كل مرة، تثني على ممدوح، وتدعو على زوجها بالهلاك،فزالت الحيرة من نفسي، بعد أن أدركت للسر تفسيراً.

أكثر ما سحرني في عمان وشدّني إليها، قلعتها ومدرجها الروماني، وسبيل الحوريات، ومياه السيل الجارية، التي تشطر المدينة إلى شطرين، وكنت أقضي ساعات الأصيل في يوم الجمعة، جالساً على تيجان الحجارة المتناثرة، وقدماي تلعبان في الماء، أرقب أسراب الحمام، تلمع تارة مع أشعة الشمس، وتجنح حيناً في الظل نحو بطون الجبال.

لكن السفر من قرية إلى قرية، تُحسب غربة، فلم تغنيني مباهج المدينة، عن مفاتن الريف، التي تعطّره مزنة بأنفاسها، وبقيت على هذا الحال حولاً كاملاً، حتى غير الله من حال إلى حال، ووجدت عملاً في معهد أبناء الأمة في

رام الله، بأجرٍ لم أكن أحلم به من قبل، وصار إسمي صاحب وظيفة، تتمنّاها بنت السلطان.

في أيام العطل، صرت أتشبّب في هندامي، وأفرق شعري على الجانبين، وأولي وجهي شطر الحي الذي تسكنه مزنة، علّني أشاهدها تقف في البرندة، أو تنشر غسيلاً في الفناء، فإن وقع بصري عليها، تداخلني نشوة، وتصدر عني حركات تشبه التمثيل، وإن لم أرها، تتلبسني تعاسة، كمن قضى وقتاً في الظلام.

كانت أعذب اللحظات في نفسي، حين يصادفني أخوها مازن، يدعوني معه إلى الدار، نقضي وقتاً في الحديث عن شؤون الساعة، خصوصاً عن فلسطين، وما ينتظرها من أهوال، فقد وضع الشاب قدميه في بحر الشيوعية، لكنه لم يتقن العوم، وكنت أجادله بحديث فيه تصنّع، ظناً مني، أن الصبيّة تتنصت علينا من شقوق الباب، وإن دخلت علينا الغرفة، تحمل طعاماً أوشراباً، تبدو خجولة، وكلما غاب عنا

مازن لأمر ما، وبقيت معها وحيداً، يتغير لونها، وترتبك حياءً، وتتململ في جلستها، كأنها تريد أن تروح، لكنني كنت أشاغلها بأسئلة مبهمة المعاني، فتجيب عليها بعبارات عفيفة، لا تقبل التأويل.

حاولت مراراً زحزحتها عن رزانتها بنظراتٍ مثيرة، لكنها ظل ّتثابتة على توازنها، وكلما ازدادت البنت غموضاً، كلما تولّعت بها كثيراً، وبالرغم من أنها كانت أميّة، إلا أن حضورها في وجداني، كان أعذب من شهد الجبال.

بعد أن تحسّن معاشي قليلاً، رحت أقسمه بالتساوي بيني وبين الأهل، قسمٌ أنفقه على حاجاتي في المدينة، والآخر أضعه في يد الجد، فاشترى مهرة للحراثة، وباتت ملابس أمي جديدة، ولسان جدتي دائم الشكر، لأن الله عوّضها عن ابنها، بحفيدٍ صالح، ولولا أنني كنت أقيم في المعهد، لما استطعت أن أدّخر من حصتي شيئاً.

في يوم الخميس، عدت إلى البلـد، فاسـتقبلتني جـدتي بوجه مشرق، وعلى لسانها نبأ بشارة، ينازع للقفز مـن بـين شفتيها، وفي ضحى اليوم التالي، دعتني أن أجلـس معهـا في الظل عند الباب، وحين اقتربت منها، ألقت نظـرة إعجـابٍ في عيني، ومدت يدها وراحت تعبث في شعري، وقالت:-

-آن الأوان، لأن نطرد الحزن من زوايا الدار.

نظرت في وجهها مستفسراً، وقلت:-

-وماذا في هذا؟

قالت في نبرة حازمة:-

-لا بدّ أن تخطبَ العروس التي أحبها قلـبي لـك، ولا أستطيع أن أرى، ابنة أخي عطا الله، تطير من بين أيـدينا في غفلة منا، ولا بد من إجراء سريع، حتى نضع حـدّاً للعيـون المفتوحة عيلها.

أنسرب في جسدي تيار سحري، وغمرتني سعادة كنت أظنها بعيدة، وقلت متعزّزاً في حياء الملهوف:-

- نحن لا نملك المال، وبنات الناس غاليات المهور.

قالت باستهانة:-

- هناك أشياء كثيرة، إن فكرنا في تفاصيلها، كان من المستحيل أن نعملها، ومدت يدها، وأمسكت بفطيرة العسملّي المعلّقة في عنقها، وقالت:-

- نبيعها ونبيع المهرة معها، وبعد ذلك، يفرجها الله من هنا وهناك.

أطرقت حياءً، ثم عدت أسألها:-

- هل خالي عطا الله على علمٍ بما تدبّرين؟

- نعم، أخي له نظرة في معادن الناس، وكله يقين، أنك الرجل الصالح، الذي يحافظ على ضلعه القصير،

بأمارة، أنه طلب مني أن أقف على رغبتك، حتى يقطع الطريق على الخاطبين.

ابتسمت في وجهها، وقلت لها في مزاح بارد:-

- البنات كثيرات يا جدتي، والعبرة بالجنيهات.

ضحكت والدموع تتفصّد من عينيها، وشدت شعري، وسفعتني على خدي، وأنا في غاية السعادة، وقلت في تسليم:-

- كل شيء كما تريدين.

بعد أسبوع، تمت الخطبة وكتب الكتاب في آن، وكان خالي عطا الله كريماً معنا، فلم يكلّفنا سوى القليل ، وانفتحت القلوب على بعضها، كما تفتح البحار على المحيطات، واتخذت من حي (الشرفة)، محجّاً عند كل مساء، وكلما عادت مزنه إلى قريتها في نهاية الأسبوع، أتبعها، وأقضي معظم وقتي مع والدها، أستمع منه إلى نصائح وعبر، عن تجاربه في الماضي، وفي مرة شكوت له نصّاباً،

جاءني متوسلاً، أن أعمل له كعب بندقية من خشب، مقابل ثلاثة جنيهات، دون أن يفي الرجل بالسداد.

نظر خالي عطا الله في وجهي نظرة الوصي الواعظ، وقال:-

- اسمع يا عاشور، لقد وهبك الله ذوقاً وحياء، ووضع في صدرك قلب الملائكة، وألقى بك بين أناسٍ، فيهم وداعة الحمائم، وخبث الأفاعي الرقطاء، ونصيحتي، أن تضع في جيبك، حفنة من قلة الحياء، تعفرها في وجه من يأكل حقك من الطامعين.

بعد سنة من الخطوبة، دعاني خالي يوماً إلى الغداء، وبعد حديث طويل، قال لي:-

- كل سعادة في الدنيا لها حد، وإن طالت مدتها فقدت بهجتها، وقد رأيت يا ابن أختي أن نحسم أمر الزواج. حتى أطمئن عليكما وأنا حي

تململت في مكاني، وقلت:-

- لكن الظروف.....

قاطعني قائلاً:-

- كل شيء محسوب، والبنت والولد عندي سيّان.

بعد أسبوع، تمت الفرحة في الدار، كما أرادها خالي، وجمعنا النقوط، وقضينا الأسبوع الأول من شهر العسل في دير اللطرون، قرب عمواس، حتى ترضى عني بنت الأكابر.

عدنا إلى البلد، وجيوبي خاوية، إلاّ من بعض الشلنات، فذهبت السكرة وعادت الفكرة، وعاودتني ذكريات البطالة أيام الجوع.

أدرك خالي، محنتي بذاكرة الكريم الخفية، ودس في جيبي قرضاً طويل الأجل، حتى يفرجها عليّ الكريم. تمنّعت في البداية، وبعد الحلف على شاربيه بالطلاق، قبلته خجلاً، ولساني عاجزٌ عن الامتنان.

استأجرت بيتاً قرب عملي في رام الله، وعشت مع مزنة، كما يعيش الأمير مع الأميرة في الجزيرة، فكانت المرأة الوفية، كأن الله فضّلها على هواي تفصيلاً، ومن شدّة تعلّقي بها، وخوفي عليها، كانت جدتي تمازحني أمامها ضاحكة، وهي تقول:-

- صرصورٌ قبض على خنفساء، وأصبح في أمرها حيراناً.

أقمنا علاقة حيمة مع أهل الحي، ورحنا نتسامر مع بعضهم عند المساء، وكانت زيارة أُمي لنا نادرة، أقصاها ثلاثة أيام، تأتي محملة بأطياب الريف، وإن أجبرناها على البقاء، تتذرّع برعاية دجاجاتها، تخشى عليهن من غارات النمس، خصوصاً في ليالي الشتاء الموحشة.

كان وجود أمي في الدار، يضفي علينا نفحة من سكينة، خفيفة الظل، قصيرة اللسان، لها وجه المرأة، وقلب العذراء، إذا أمعنت النظر في عينيها، أرى في أعماقهما

أبواب الجنة، لا يصدر عنها سوى كلام مفرح، وإن مرّ ذكر أحدٍ فيه عيب، تدعو له بالهداية.

بعد عامين،أنجبت مزنة، وليدها الأول، وفتحت أنامله الطرية، أبواب الرزق في وجوهنا، فقد ترقيت، وأصبحت رئيس قسم النجارة في المعهد، والسعادة لا تبقى على وتيرة واحدة، فقد رحل الجد عن شيخوخة ووقار، وفقدت الدار بموته ركناً من أركان الحضور والبركة، وحزنت الجدة على وليفها، وأضربت عن الطعام، حتى لحقت به بعد عام، فكانت تلك السنة، سنة القنوط والأحزان، لكن الله يلهم المؤمنين الصبر والبصيرة، ويتجاوزون أحزانهم، حتى تظل الحياة تسير، كما أرادها الله.

بعد خمس سنوات من الزواج، تعاقدت مع معهدٍ عالي لتعليم النجارة في الرياض، وحين ذاعت شهرتي بالأمانة والإخلاص، دخلت قصوراً عديدة للأمراء، لتركيب الستائر وغرف النوم والسفرة ومرايا الجدران.

مـرّت عـشرون عامـاً بـسرعة، توالـت فيهـا أحـداث وأحداث، كان أشدها ألماً في النفس، ضياع فلسطين من الماء إلى الماء، ورحيل أمي وخالي عطا الله، إلى الدنيا الآخرة.

خالف خالي عطا الله، شريعة الدين قبل رحيله، حين شدد في وصيته الأخيرة، وهو في النزع الأخير علـى فـراش المـوت، توزيـع الإرث بالتـساوي، بـين الـذكور والإنـاث، فضرب بعملـه هـذا، سـنة جديـدة، لا مثيـل لهـا في تكـريم البنات.

أنجبت مزنة في الغربة طفلين آخرين، ملأ علينا الـدار بهجة وسروراً، وحين امتلأت جيوبي بالمال، ابتعـت أرضـاً في أم أذينة، غرب عمان، أقمـت عليهـا بيتـاً فخمـاً، وسـط حديقة غنّاء، وكبر الصغار، وفاز كلٌّ منهم بعروس، ورحلوا تباعاً خلف بعـضهم إلى أمريكـا، مثـل سـرب مـن الطيـور المهاجرة، و استويت أنـا وأمهـم، عريـساً وعروسـاً، علـى عرش السعادة من جديد.

رحنا نعتني بالحديقة، ونزور الأولاد، خلف البحار بين الحين والحين، وأصبحت الدار ونحن فيها، مزاراً للأهل من فلسطين المحتلة، فكانت مزنة بنت أصول، لا تبخل على الضيوف، بالخير، الذي أنعمه الله علينا، وقد سافرنا مرات عديدة، إلى سوريا ولبنان وتركيا من أجل الترويح.

لكن لكل سعادة نشوة، ما أن تبلغ ذروتها، حتى تبدأ بالنكوص، فكانت الضربة الأولى في الصحة، فبعد أن تعدت مزنة سن السبعين، بدأت تميل إلى الهزال، وتشكو الإرهاق والتعب، وساد لدينا شعور خفي، أن ذلك بحكم السن، الذي لم نعترف به حتى الآن، وأحجمت عن مراجعة الطبيب في البداية، خشية أن يبتدع لها مرضاً ثقيلاً من أمراض العصر، وظلت تكابر عدة أيام، حتى قرع علينا في المنام إنذارٌ خطير، فصحوت عليها تتجندل في الفراش، مثل فرخة مذبوحة، ولم تلبث، حتى تقيأت ما في جوفها، وهرعت إلى المطبخ، أغلي لها بعض الأعشاب.

عدت إليها مذعوراً، وأنا أدعو الله من قلب صادق، أن أموت قبل أن يصيبها مكروه، ومع الصوت الأول الذي أطلقه العصفور في الحديقة، حملتها إلى قسم الطوارئ في مستشفى الجامعة، ورحت أتصنع المرح معها طيلة الطريق، لعل العواقب تأتي سليمة.

نزلت مزنة من العربة موجوعة الجسد والحواس، سرت معها بهوادة، وكلما حاولت الإمساك بذراعها، أشعر انها تنازع للإفلات من بين يدي، كأنها تعلن للناس، أنها ما زالت قوية.

دخلت مزنة، دهاليز الفحص، وكنت أدور معها كيفما تدور، ما عدا الغرف الممنوعة، وكانت عيناي ترقبان نوايا الطبيب، فمن فمه تصدر الشفاعة أو النطق بالخراب،

ومن يخشى العفاريت، تظهر له في الحال، وقال بلسان من أدمن الصراحة مع الناس:-

- زوجتك تعاني من فشل كلوي.

نزل الخبر على نفسي، نزول الصاعقة على الرأس، فكانت أول إشارة، إلى بداية الطريق نحو العذاب.

قضت مزنة عاماً، مقسّمة أيامه بين أوجاع البيت وغسيل الكلى، وصارت صحتها تتدهور يوماً بعد يوم، وكلما كان جسمها يذوب، يذوب جسمي معها، وعندما شارفت على النهاية، جاء الأولاد من أمريكا، فكانوا على موعدٍ مع زفراتها الأخيرة، وراحت تودعهم بنظرات موجوعة، وكانت عيناها بين الحين والحين، تنهلان دموعاً باردة.

بعد يومين من وصول الأبناء، غاصت الأم في غيبوبة عميقة، ووقفنا جميعاً حولها ندمع صاغرين، وهي معلقة بين الحياة والموت، نرقب أنفاسها بين الشهيق والزفير، ولم تلبث، حتى أسلمت الروح. بعد أن صعدت روح الحبيبة إلى السماء، لم أصدق عيني، وتصورتها في

وحدتي حورية لها جناحان ومبسماً جميلاً، ترفرف حولي في سماء الغرفة، وكلما حاولت الإمساك بأطرافها، تضحك منّي وتنأى عني، وكلما عاودتني أحلام اليقظة من جديد، أراها تنتصب أمامي، وسط هالة من نور، وعندما أعود إلى صوابي، لا أجد أمامي سوى أوهام، فأصبحت حياتي من دونها مقفرة، ولا أعرف لماذا ظلّ القدر يفتح لي عين، ويغمض الأخرى، حتى جعلني يتيم الأب في أول العمر، ويتيم الحبيبة في آخر العمر.

كانت مزنة مخلوقة عجيبة، أخذت وداعتها من طبع الحمامة، ونقاءها من صفاء الوردة البيضاء، فكنت أجالسها محدّثاً، وأسألها مستنيراً، وأقترب منها شاكياً، باسطاً ما في روحي من أسرار، ففي هذه الغرفة الساكنة، كانت بالأمس، المرأة التي أحبها قلبي، تتكيء على مساند وردية ناعمة، وقد ألقت رأسها الجميل في النزع الأخير على صدري، ومن هذه الكأس البلورية، شربت من يدي آخر جرعة من بلسم، ممزوجة بخلاصة الحب والدعاء.

كل ذلك كان بالأمس، والأمس حلمٌ لايعود، فقد رحلت مزنة الحبيبة، إلى خليج الخلود دون عودة، بعد أن ألقت أنفاسها العطرية، على أثاث البيت والحديقة، وتركت بصمات أصابعها السحرية على بلور مرآتي.

إن رسم مزنة، التي أحبها قلبي، لم يزل منصوباً بجانب مضجعي، وكلمات الحب والوفاء، ما زالت أصداؤها، تتردد في فضاء غرفة النوم، خصوصاً، ضحكتها الرنانة، وهي تصفعني علي قفوتي عارياً في نهاية النشوة، وهي تقول:-

- لا تهدر اللذة جميعها في مرة واحدة، فالعمر ما زال أمامنا طويلاً.

أما اليوم، فقد رحلت تلك الحبيبة، إلى أرضٍ بعيدة، خالية مقفرة، تُدعى بلاد الهجر والسلوان، دون أن تدرك وهي حية، أن العمر دقيقة، والموت دهراً.

تجرّعت طعم اليتم في الطفولة، ومرارة الترمل في عز الشيخوخة، ووجدت سلوتي في الأولاد والأحفاد، ورحت أبحث عن صداقاتي القديمة، ومرّ على خاطري فارس عطا الزير، ورحت أقلّب صفحات دليل الهاتف، أبحث عن كل مشتركٍ ينحدر من سلالات الزير، فوجدت الزيرة كثيرين، ومن هاتفٍ إلى هاتف، اهتديت إلى ما أريد، ترددت في البداية، خشية أن يكون الرجل في ذمة الله، فاستكثر على نفسي طول العمر، فيداخلني شعورٌ بالكفاية، فأموت فوراً من الخوفْ.

دعوت إرادتي أن تمدني بالرعاية، ورفعت السماعة، وطلبته بحذر وخوف، فجاء صوته متهدّجاً، مثل زئير أسدٍ مريض، رحت أعاكسه في البداية، لعله يحزر من أكون، وعندما بلغ الضجر به في نهاية، وبدأ يتوعر في الحديث، خفت الشتيمة، وقلت له على الفور -

- عاشور، رفيق العمر في دار الأيتام.

هتف مستبشراً:-

- عاشور، يا مرحباً يا مرحبا، وهل لازلت حيّاً؟

ضحكت وقلت له في دعابة:-

- هل يموت الشباب في ريعان شبابهم؟

قهقه الرجل طويلاً، وتعثـرت ضـحكته في الـسعال، حتى حسبت عينيه تفرّان عبر الأسلاك.

بعد أن شرّق الحديث بنا وغرّب، تواعدنا علـى لقـاء، ولم تمـض أيـام، حتـى أخـذت سـيارة بـالأجرة، إلى جبـل الحسين، ومن يسأل لايضل الطريق، ومن عطفة إلى عطفـة، وزنقة إلى زنقة، حتى اهتديت إلى الدار، فرأيت عجوزاً يقف في الباحة، يتلفت نحو الشارع، كأنه ينتظرني، وحـين تأملتـه عن قريب، غشمت عليّ ملامحه، فقـد أخـذت العقـود مـن شبابه حصّتها، ولم تدع لشيخوخته، سـوى العيـنين والبـوز، وحين عرفني، ضمني إلى صدره، وراح يجهش بالبكاء، حتـى بلل كتفي بالدموع.

لم يمض وقت، حتى تحول اللقاء إلى ضحك وترحاب، وتذاكرنا مواقف وعهوداً خالية، وبعد أن طال الحديث بيننا، وجدت حاله مثل حالي، يبكي رفيقة العمر، بعـد أن تجـرّع مثلي كأس اليتم في الطفولة، ورحلت عنه زوجتـه، وتركتـه

وحيداً، ضعيف البصر والصحة، وانفضّ عنه أولاده، مبعثرون في أرض الشتات، ما عدا ولد يسكن إلى جواره، يتفقّده كل صباح، خشية عليه من مكروه، وظلت عصبيته المعهودة، تلازمه في شيخوخته، وكان يطفؤها في كل مرة، بالبكاء وبرودة الدموع.

حين سألته، عن تكريم لوالده طيلة هذه السنين، تنهد طويلاً، كأنه مجروح، وقال:-

- الشعوب الحية، تخلّد شهداءها كل عام، ويطرقون خشوعاً على شواهد قبورهم، وينكسون الأعلام إجلالاً لهم، أما ذكرى شهداء الأمة المريضة، فإنها تضيع في تاريخها البليد، كما تضيع الإبرة في كومة من قش، فقد سادت حفنة منبوذة في فلسطين، على أمة، عرضها السموات والأرض، لأنها فقدت الذاكرة منذ زمنٍ بعيد.

وها أنا، قد شارفت على التسعين، لم أجد من يعرف، أن عطا الزير، قد ترك وراءه أيتاماً، فقد ضحى أبي بشبابه وذويه، من أجل الوطن، حتى يطرب الناس على مأساته،

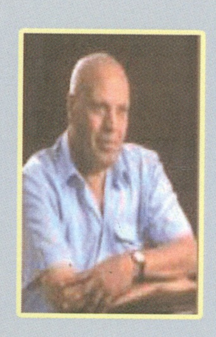
وما عليَّ أنا اليوم، سوى أن أميل برأسي، طرباً معهم، على مأساة أسرتنا، كلما سمعت المذياع يندب، وينوح:

من سجن عكا طلعت جنازة

محمد جمجوم وفؤاد حجازي.

انتهت

أحمد كايد
هاتف: 0785826147
Ahmadkayed41@yahoo.com



- بيت نبالا – بحث وثائقي/ سلسلة القرى الفلسطينية المدمرة/ مركز الدراسات والأبحاث/ جامعة بيرزيت/ 1998.
- سماح تجمع نور القمر – رواية/ وزارة الثقافة/ 2001.
- ناقد على الجنة – رواية/ مطبعة الشباب / 2004.
- دير الهوى – رواية / مطبعة الشباب/2004.
- ريحانة – رواية / مطبعة الشباب/2005.
- الأرملة – رواية/ وزارة الثقافة /2007.

* فائزة بالجائزة الأولى/ اربد مدينة الثقافة الأردنية.

- بنت البلد – مجموعة قصصية/ وزارة الثقافة/ 2008.
- عذاب الياسمين- رواية / وزارة الثقافة/ 2009.

* فائزة بالجائزة الأولى / الكرك مدينة الثقافة الأردنية.

- الرجوع الأخير – رواية/ دار الخليج للنشر.
- قطار العمر – رواية / مطبعة الشباب –عمان.
- لست مجنونة – رواية/ دار غيداء للنشر.





دار غيداء للنشر والتوزيع
تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله   مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس : 5353402 6 962+   خلـــوي : 95667143 7 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن   E-mail: darghidaa@gmail.com
9789957572143